الفصل الرابع

نظام المفاهيم

الفصل الرابع
نـــظام المفاهيـــم

ميلاد الفكر لحظات لانبثاق العقل وشموخه ومناسبة لانبعاث المعرفة وانطلاق الكائن نحو عوالم المتعة والتفرد فى دنيا الإبداع وهكذا عندما تتحول المعارف إلى صروح للتقنين والسيطرة والاحتواء يصبح الإنسان مجرد هيكل ووعاء لتشييد البرامج ونحت أصنام الفكر.

فى الفلسفة يظل أفق الإبداع منفتحاً ويبقى الحيز يضج بالرحابة والاتساع هناك حيث لا مجال لوأد الرغبة وكبح لجام الأفكار. فى رحاب الفكر وليس بعيدا عنه يحضر ضجيج الفعل وتتشكل آثاره ويغيب فضاء الصمت الجنائزى المدجج بترهات الأدعياء والحامل لتنطعات كهنة الفكر ورواد الحقائق الميتة.

قد يخطئ من يعتقد أن الفكر ليس سوى معارف تصفف وترتب لإحداث التراكم وتوفير المتطلبات فمجال المغامرة نحو مجاهل العالم وعجائبه تبقى بمثابة ذلك المنطق الذى لا يتجاوز ما دمنا نمتلك امتياز الدهشة (=الفلسفة) وحظ اكتشاف الجديد فى كل لحظة من سنوات عمرنا الحضارى.

لقد بقى الفكر يغازل نفسه ويعدد «منجزاته» حينما انغلق على نفسه طيلة قرون من الزمن البطئ، واكتفى بإعادة إنتاج نشوة نصر بائد، حدث أن تلألأ ذات يوم فى فجر يونانى انقضى، وكاد أن يتحول إلى مجرد أفكار تردد فى طقوس وصلوات الفكر المتكلس ولم يتمكن الفكر الإنسانى المنفتح من انقاذ نفسه من شرنقة الإعداد الأعمى إلا بعد سنوات من الصراع الإبداعى المرير.

ومن الفلسفة اليونانية وصولا إلى الفلسفة المعاصرة بمدارسها وتياراتها المتعددة والمتضاربة، مر الفكر الإنسانى بمراحل مختلفة عرف خلالها سيلا غير منقطع من الأفكار والآراء التى شكلت محور اهتمام النخب المفكرة عبر تاريخ ممتد، ميّزه الحضور القوى والمتواتر لظلال كل من أفلاطون وأرسطو، ولم يتمكن الفكر الفلسفى أن يحصل على نوع من الاستقلال النسبى عن «هيمنة» تنظيرات كل منهما إلا انطلاقا من عصر

النهضة وتحديدا بداية من أصحاب الأنساق الفلسفية الكبرى التى يعتبر كل من كانط وهيجل من أهم ممثليها على الإطلاق.

وإذا كان الإبداع الفلسفى يستمد أصوله التأسيسية انطلاقا من منجزات الفلسفة اليونانية، فإن التفكير فى آليات إنتاج المعرفة البشرية بكل أنواعها، وبالتالى التنظير للقواعد التى يسلكها العقل البشرى من أجل وضع القوانين التى تضبط نشاطه وحركيته المتواصلة، وتحدد بل وتبدع منهجياته فى ميادين الممارسة العملية والعلمية وحتى الفلسفية، لم تبرز إلا مؤخراً مع الأبحاث اللسانية والابستيمولوچية. . . الخ.

لقد كان الفكر البشرى فى السابق يهتم بشكل أكبر بإنتاج ركام من المذاهب والأنساق والآراء ولم يهتم إلا بشكل مبستر وربما متهافت بدراسة الآليات والأدوات التى تحكم وتوجه عملية إبداعه وتفكيره، لذلك فإن «الانقلاب» الراهن جعل أهم نشاط للكائن البشرى، ألا وهو فعل التفكير، محل تساؤل، يعتبر بمثابة تحول جذرى وحاسم فى مسيرة الفكر الإنسانى.

١- ما المفهـــوم ؟

إن إشكالية تعريف المفهوم وإبراز دلالته ومعناه، تعتبر من المسائل العويصة جداً حتى فى نطاق الأبحاث الفلسفية الحديثة، ذلك أنه وباستثناء التعريف المنطقى «للمفهوم/ التصور» كما تم تحديده من طرف أرسطو، فإن المفهوم بمعناه الإجرائى والتقنى، ظل يستعمل من طرف الباحثين والفلاسفة كأداة ضرورية وضمنية، دون أن يتم فى المقابل الالتفات بشكل جدى إلى مكوناته وأجزائه الداخلية التى تلعب دوراً أساسياً فى عملية تعريفه.

ولو قمنا بمتابعة الأسلوب أو الكيفية التى وضعت بها المعاجم الفلسفية تعريفها للمفهوم، فإننا سنلاحظ بأن هناك اختلافاً كبيراً وشططا واضحاً فى عملية التعريف "لالاند" André Lalande لا يكاد يوضح لنا بشكل مقنع الفرق بين المفهوم والتطور، وبول فولكيى P. Foulquié. يقول بأن المفهوم **«هو تمثيل ذهنى مجرد وعام (...) وهو مرادف لـ: الفكرة العامة والمعنى المجرد notion وبخلاف "الفكرة" التى تنتمى إلى اللغة العامة، فإن المفهوم هو لفظ تقنى خاص بالفلسفة، لذلك فإن له معنى أكثر تحديداً. وهو كذلك أكثر موضوعية، ففى الوقت الذى يمكن أن تكون لى فكرتى حول العدالة، فإن مفهوم العدالة مستقل عنى وهو يعتبر خارجاً عن ذهنى. وفى حين أن "لكل واحد**

أفكاره" والتى هى إلى حد ما شخصية. وإلى حد ما ناصعة، فإن المفاهيم ليست شخصية»[1]. أما صاحب قاموس «الكلمات الفلسفية» les mots philosophiques، فيحصر عملية التعريف فى جملة من الاستطرادات القليلة التحديد، فبالنسبة له: «الاسم الإغريقى لكلمة "فكرة" كان يعنى "ما نراه" ، "حجما ظاهرا". وأفلاطون كان يستخدمها لتحديد أشكال مجردة (...) وهناك معنيان قريبان : الفكرة كمرادف للمفهوم (...)، والفكرة كمرادف للنموذج modèle وبمعنى أوسع: نسمى فكرة كل موضوع للفكر، وهذا اللفظ يجمع إذن كذلك، كلا من تمثيلات الذاكرة أو المخيلة وكذا المفاهيم أو النماذج. والفكرة تتميز فقط عن العاطفة والفعل»[2]. ويفصل كانط، كما هو وارد فى نفس المعجم « ما بين التمثلات الحسية. والمعانى المجردة والأفكار idées (...) ويميز هيجل ما بين المفهوم والفكرة : فالمفهوم ذاتى، وهو من إنجاز الفكر الإنسانى، والفكرة تعتبر موضوعية، إنها ترتيب ما بين المفهوم والواقع الذى يمثله المفهوم»[3].

ونستطيع أن نقدم أمثلة أخرى مماثلة فيما يخص الالتباس وربما التعارض الذى يكتنف عملية تعريف «المفهوم» فصعوبة الحديث عن معانى المفاهيم ونشوئها يعود كما يرى ذلك «جيل غاستون غرانجيز» G. G. Granger إلى كون أن مثل ذلك الحديث هو بمثابة تفلسف حول الفلسفة. ومن الغريب كذلك، كما يشير إلى ذلك عمر الشارنى فى كتابه: "المفهوم فى موضعه" «أننا إذا فتحنا معجما من المعاجم وليكن هذا المعجم معجم لالاند، وألفيناه لا يضيف شيئاً لما نجده فى المعاجم العامة أو المختصة. فهو عندما يعرف المفهوم بأنه الفطرة من حيث هى فعل أو موضوع للفكر يتصف أساساً بكونه مجرداً وعاماً أو قابلاً للتعميم، لا يزيد شيئاً للتعريف الذى يقدمه لاروس، بل هو يسقط منه شيئاً هاماً على الأقل من حيث الوضوح البيداغوجى. ذلك لأن معجم لاروس يقابل بين المفهوم والصورة. ويقول أن الصورة تمثيل لشىء واحد، خاص، مثلاً

---

(١) Paul Foulquié : Dictionnaire de la langue philosophique : P.U.F - Paris- 4ème édition Mars. 1982.

(٢) Alain Lercher : Les mots philosophiques / illustrations de Bennip Edition : Belin Paris. 1985.

(٣) . Ibid. P.120 et. 121

كنيسة، فى حين أن المفهوم هو تمثيل لكل الأشياء المنتمية إلى جنس واحد، مثال ذلك الكنائس عموماً. غير أن مختلف المعاجم تعدل عن خصوصية البحث فى المفهوم بمجرد ما تصل إلى هذه المطابقة السهلة بينه وبين الفكرة»[1].

لقد أصبح واضحاً، إذن، من خلال استعراضنا لبعض التعريفات المقترحة لمفردة "مفهوم" أن هناك محاولة للمفاضلة ما بين المفهوم والفكرة من جهة والمطابقة ما بينهما من جهة أخرى. وسواء سلمنا بالفرق المفترض ما بين المفهوم والفكرة أو قمنا بإقرار تطابقهما، فإن الالتباس يبقى قائماً والحسم فيه مؤجلاً حتى إشعار آخر، وسنعود إلى موضوع العلاقة ما بين الفكرة والمفهوم فى فقرة لاحقة.

إن غموض « المفهوم» كما نلمسه من خلال بعض المعاجم الأجنبية المتخصصة يزداد حدة وتعقيداً حينما يتعلق الأمر بمعناه ودلالته فى إطار الثقافة العربية المعاصرة، وهكذا فإن هناك تداخلا شبه تام ما بين مفردتى «تصور» و «مفهوم»، ويكاد معنى المفهوم بصيغته الإجرائية والتقنية كما وضعه كانط يكون غالباً لذلك فإن الدكتور موسى وهبة يقترح علينا كمرادف لمصطلح «concept» و «Begriff» بالألمانية، مفردة عربية هى «أفهوم» أو «أفاهيم» بصيغة الجمع، ويقوم بتعريف الأفهوم الكانطى كما يلى: **«يدل الأفهوم بعامة على وحدة ما نتصوره فى مفهوم الموضوع وما يؤسس بالتالى وحدة أفراد ما صدقه، ويصح إطلاقه بهذا المعنى على الأفهوم الأمبيرى (فيوازى اسم الجنس فى اللغة العادية) والأفهوم المشتق (المعانى) والأفهوم العقلى (أو الفكرة) والأفهوم المحض (المقولة) . والأفهوم المحض هو فعل تلقائى من أفعال التفكير الذى تقوم به الفاهمة فى توحيدها القبلى لما يمكن أن يعطى فى التجربة أو الحدس»**[2]. ويستطرد الدكتور «موسى وهبة» فى شرحه للأفهوم قائلاً بأنه وطبقاً للمعنى الذى سبق، فإنه يشكل **«وحدة تأليف المتنوع قبلياً، وهو بالتالى شرط كل معرفة موضوعية لأنه شرط**

---

(١) عمر الشارنى: المفهوم فى موضعه أو فى العلاقة بين الفسلفة والعلوم - دار الجنوب للنشر - تونس - عن مفاتيح سلسلة - يديرها حسن الواد - ١٩٩٢ - ص٢٦.

(٢) موسى وهبة - مجلة الفكر العربى - مقال - مصطلحات «نقد العقل المحض» - السنة الثامنة - عدد رقم٤٨ - محور "نقد العقل المحض" بالذكرى المئوية الثانية لوفاة كانط - بيروت- أكتوبر ١٩٨٧ - ص٧٨.

وجود الموضوع كموضوع تجربة ممكنة، (...) والأفهوم على وزن أفعول، لفظ ولدته توليداً للدلالة على ما تقدم، ولأن ما هو متداول بالعربية لا يفى بالغرض. فالقول أنه "المفهوم" (...)، يخلط بينه وبين المعنى المنطقى ويوقع فى حيص بيص عند الكلام على مفهوم الأفهوم وما صدقه (- Inharl Ufmang) : والقول أنه "التصور" (...) يقوم على لبس أصلى فى فهم نص لابن سينا يقول فيه :"العلم تصور وتصديق، حيث التصور لا يعنى البتة الأفهوم بل "حصول صورة الشىء فى العقل"...»[1].

وحتى يتضح لنا بشكل جيد معنى «concept» فى القواميس العربية نعود إلى معجمى «جميل صليبا» و «مراد وهبة» وكذا إلى موسوعة عبدالرحمن بدوى الفلسفية، فبالنسبة للأول نلاحظ أنه يضع فى مادة تصور كمقابل للفظ العربى، مصطلح concept، ويشير بعد ذلك فى مادة «المدرك» إلى **«أن المدرك موضوع الإدراك وهو مقابل للتصور (concept)، أى المعنى الكلى»**[2].

وفى آخر مادة «معنى» من نفس المعجم نجد أن المؤلف يضع كمقابل للكلمة الأجنبية notion لفظ «معنى» ويشير فى آخر التعريف إلى **«أن المعنى المجرد هو التصور (concpt)»**[3]. **ويحيل القارئ بعد ذلك إلى مادة «تصور»** فى حين نجده يضع لفظ «مفهوم» فى تقابل مع اللفظ الأجنبى Compréhensin. ونفس الشىء تقريباً يمكن أن نقوله بصدد معجم مراد وهبة، حيث أنه يفرق هو الآخر ما بين معنى أى notion ومعنى كلى أو تصور (concept)، كما يتفق مع جميل صليبا فى وضع كلمة Compréhensin كمقابل لـ«مفهوم» ويستخدم فى موضع آخر لفظة connotation كمرادف «للمفهوم» أما فى موسوعة عبدالرحمن بدوى الفلسفية فلا نعثر سوى على لفظ «التصور السالب» فى مواجهة مع Concept négatif.

عند الدكتور الطاهر وعزيز نجد محاولة مقبولة إلى حد بعيد، وفى مجال تعريف المفهوم، كونها تجمع بداخلها الكثير من العناصر النظرية الحديثة والمعاصرة التى تعاملت

---

(١) المرجع نفسه - ص٧٩.

(٢) جميل صليبا - المعجم الفلسفى بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية - دار الكتاب اللبنانى - مكتبة المدرسة - بيروت - الجزء الثانى - سنة ١٩٨٢ - ص٣٦٠.

(٣) المرجع نفسه - الجزء الثانى - ص ٣٩٩.

بشكل تقنى مع لفظ «concept»، فهو يؤكد بأن «المفهوم» «.. من المفاهيم التى يعسر كثيراً تحديدها بسبب تعدد معانيها واختلافها (...) ويطلق على التصور الذهنى العام، أو المعنى المجرد العام. وقد نرى فى العربية اليوم استخدام لفظ "المفهوم" للدلالة عليه، أما المناطقة العرب فقد سموه "الكلى" أو "المعنى الكلى"، أو "المعنى العام" أو «المعنى العامى»، واكتفوا أحياناً باسم «المعنى» (...) ويطلقون اسم "المفهوم" على فحوى الألفاظ أو ما يفهم منها [compréhension]، أى مجموع الصفات أو الخصائص التى يتكون منها المعنى العام. وهذا فى مقابل الماصدق [extension] الذى هو مجموعة الأفراد التى يصدق عليها الكلى. وبهذا الاعتبار نقول أن "المفهوم" فى استعماله الحديث، له مفهوم وما صدق»[1]. وهكذا فبعد استعراض الكاتب لجملة من التعريفات التقليدية التى سادت خلال فترة فلسفية ممتدة حول "المفهوم" والتى مازالت تسجل حضورها فى الكثير من الدراسات التقليدية، فإنه يحاول فى الفقرة اللاحقة أن يقدم لنا المعانى «التقنية» المرتبطة بالصيغة الإجرائية للفظ والتى استطاعت أن تمنح للمفهوم دلالته المعاصرة وبالتالى أن تجعل منه دالا ومدلولا لا شديد الأهمية يرتبط به ويتم من خلاله كل إبداع فلسفى، ففى اللغة الفرنسية، يقول الطاهر وعزيز، يتم استعمال «... مثلا، كألفاظ مترادفة على العموم، للدلالة على المفهوم أو المعنى : concept, notion, idée, générale, idée، ولكننا نلاحظ ما يلى:

١ - إن الأول من هذه الألفاظ، وإن استعمله ديكارت مثلاً، لم يفرض نفسه إلا عندما وقعت ترجمة أعمال كانط وأتباعه، فقد حاول صاحب نقد العقل الخالص أن يجعل لكل واحد من الألفاظ المذكورة معنى خاصا. إن المعرفة عنده إما حدس أو مفهوم (Begriff). ويتعلق الحدس بالموضوع مباشرة. أما المفهوم فلا يتعلق به إلا بكيفية غير مباشرة، وهو إما تجريبى أو خالص. ويسمى المفهوم الخالص، من حيث أن

(١) مجلة المناظرة - الطاهر وعزيز - السنة الأولى - العدد الأول - يونيو ١٩٨٩ - الرباط - المغرب - ص١٤١.

مصدره من الذهن فقط : notion، أما المفهوم المركب من عدة معان notions، ويتجاوز إمكانية التجربة فهو المفهوم العقلى : idée,.

٢ - إن لفظة idée، تنتمى إلى اللغة العادية، بينما concept لفظ تقنى فلسفى، ولذا كان ذا معنى مضبوط وأكثر موضوعية.

٣ - إن idée تذكر بصور أفلاطون التى هى مثل لأفكارنا وموجودة فى ذاتها خارج عقولنا. وهذا ما أعطى لمصطلح notion، بهذا الصدد، حظوة فى اللغة الفلسفية، وإن كان ذا دلالة أعم، وبالتالى أكثر غموضاً»[١].

نصل إذن فى الأخير إلى القول بأن تقديم تعريف جامع ومانع للمفهوم تكون له ميزة التحديد والضبط الحاسم أمر يكاد يكون فى غير متناولنا على الأقل فى الزمن الراهن خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار المستوى الذى وصلت إليه الأبحاث الفلسفية والأبستمولوجية فى هذا المجال.. لكنه وبالرغم من الصعوبة التى صادفتنا عند محاولتنا لإعطاء تعريف دقيق للمفهوم، فإن له خصائص تميزه وتسهم إلى حد كبير فى تثبيت أركانه.

٢ - خصائص المفهوم وشروط تكونه :

إن المراحل التى يقطعها التفكير النظرى من أجل الوصول إلى بناء صرح معين قائم يمتلك استقلالا نسبياً، تبقى غير محددة وغير متفق عليها من طرف جميع المفكرين وهو ما يجعل عملية تعيينها وضبطها تتسم بصعوبة كبيرة ويبقى حسمها مؤجلاً. كما أنه من الخطأ الشائع أن نتحدث عن "المفاهيم النظرية"، حتى وإن كنا نعتقد بأن المفاهيم تحمل نسبا مختلفة من النضوج الفكرى ومميزات القابلية للتجريد، فالمفاهيم انطلاقا من طابعها التنظيمى سواء كانت مرتبطة بالحقل العلمى أو الفلسفى لا يمكن إلا أن تكون ذات طابع نظرى ومجرد، حتى وإن كانت لها فى كثير من الأحيان توظيفات تطبيقية، انطلاقاً من عمليات التوظيف والاستثمار المختلفة التى تخضع لها المفاهيم،

---

(١) المرجع نفسه - ص١٤١ - ١٤٢.

وبالتالى فإن ما يميز المفاهيم، إلى جانب وظيفتها التقنية الدقيقة والمضبوطة، هو تناقضها والتباسها فى بعض الأحيان إضافة إلى بعض أدوارها التضليلية وتعارض دلالاتها ومعانيها باختلاف التوظيفات الفلسفية التى تكون المفاهيم عرضة لها طيلة وجودها النظرى.

لقد أضحى من الأمور الكلاسيكية أن نصف المفاهيم بالتجريد باعتبار هذه الصفة تشكل إحدى الخصائص الأساسية فى بنائها العام، وتبعاً لذلك نجد أن هناك اتجاهين سائدين فيما يخص نشأة المفاهيم، الأول يعتبر التجريد مجرد استخلاص للعلامات المشتركة فى الشيء وهو ما يعبر عنه لالاند فى معجمه بقوله بأن التجريد هو فعل الفكر الذى ينظر على حدة إلى عنصر (كيفية أو علاقة) من تصور أو معنى، ويركز انتباهه ويهمل العناصر الأخرى، وهو ذات التجريد الذى يقال بأننا نستطيع بواسطته أن **«نعزل بالفكر ما لا يمكن عزله فى الواقع»** (١).

الاتجاه الثانى حيث الحديث فيما يخص نشأة المفاهيم يعتمد على الارتقاء من الفردى إلى الكلى، ولا يكتفى فقط، كما يذهب إلى ذلك الاتجاه الأول، بالقيام **«بتفكيك الموضوع إلى خصائصه المنعزلة، والمقارنة بينهما فى موضوعات مختلفة ثم إبراز الخاصيات المشتركة»** (٢)، فإن مثل تلك النظرة، كما يرى ذلك الدكتور الطاهر وعزيز **« تبسط إلى أقصى حد عملية تكوين المفاهيم ، فهى عملية معقدة، ولا يمكن أن يصبح الانتباه خلافاً للمفاهيم إلا إذا أخذ منذ البداية اتجاهاً معيناً وحافظ عليه وتلقى الإدراكات المختلفة من وجهة نظر موحدة (...) ولو كان صوغ المفاهيم هو أن لا نأخذ من تعدد الأشياء إلا العلامات المتوافقة، ونتخلى عن العلامات الأخرى، فمن الواضح أنه، مع هذا الاختزال يحل عنصر واحد محل الكل المعطى للحدس فى البداية، ولكن المفهوم يفقد كل قيمة إذا ما اكتفى بأن لا يدل إلا على إلغاء الحالات الخاصة التى ينطلق منها، وبأن يحطم نوعاً ما فرديتها»** (٣).

---

(١) المرجع نفسه - ص١٣ . .

(٢) المرجع نفسه - ص١٣ كذلك.

(٣) المرجع نفسه - ص١٣، ١٤ .

إن تكوين المفاهيم هو فى نهاية المطاف، عملية معقدة تعتبر محصلة جهود فكرية متواصلة عبر التاريخ فليست **«قواعد تكوين المفاهيم - كما يشير إلى ذلك ميشال فوكو M. Foucault - مهما بلغت من عمومية وشمول، وليدة عمليات قام بها الأفراد، ثم أودعت التاريخ ترسبت فى سمك العادات الجماعية، ليست الخطاطة أو التوسيمة العارية لعمل كله غموض وإبهام فى غصونه برزت مفاهيم، عبر الأوهام والأحكام المسبقة والأخطاء والتقاليد.. يكشف الحقل قبل المفاهيمى عن انتظامات وإلزامات خطابية سمحت بإمكان عدد متباين من المفاهيم، وبسيل من الأفكار والمعتقدات والتمثلات التى ننساق نحوها طوعاً، كلما أردنا التأريخ للأفكار»** (١).

إن عدد المفكرين والفلاسفة والمشتغلين بالحقل الابستيمولوچى الذين تعرضوا بشكل واضح وصريح إلى مسألة تكوين المفاهيم وتحديد الألفاظ والمصطلحات، يعتبر قليلاً إلى حد كبير خاصة إذا قارنا إسهاماتهم بإنتاجيات أكاديمية أخرى متخصصة فى مجالات، قد تكون فى اعتقادنا أقل إلحاحاً من إشكالية نشوء المفاهيم وتطورها داخل الحقلين الفلسفى والعلمى، ولعلنا لن نكون مبالغين إذا قلنا بأن أرنست كاسيرر E.Casserer يعتبر واحداً من بين أهم من أسهموا فى بلورة إشكالية المفاهيم بشكلها المعاصر، ويتضح ذلك بشكل خاص من خلال كتابيه الأساسيين :«فلسفة الأشكال الرمزية» و «منطق العلوم الثقافية». فقد استطاع من خلال فحص البنية المنطقية للعلوم الرياضية والطبيعية أن يقيم ويثبت بشكل دائم النظرية الأصلية للمفهوم، كما استطاع أن يؤسس - كما يشير إلى ذلك جويل غوبير - Joël Gaubert فى مقدمة كتاب كاسيرر "منطق العلوم الثقافية" - منطقه الوظيفى بإحداث القطيعة مع ما يمكن تسميته بالمنطق الجوهرى المرتبط بالفكر التقليدى بشقيه التجريبى والنظرى، وبالفعل فإنه انطلاقا من هذا الحقل المعرفى يمكن للمفهوم أن ينجز وظيفته ويؤدى دوره بالطريقة الأكثر شفافية ووضوحاً خاصة وأن القانون الرياضى يعتبر الاشتمال أو التضمن عنصرا حاسماً، بحيث أن ما هو خاص يبدو وكأنه مستنبط أو ناتج عن العام.

وحتى يؤكد ارتباط المفاهيم بالبنى أو البنيات المنطقية التى تنشئها الأحقاب المعرفية

---

(١) ميشال فوكو : حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت - المركز الثقافى العربى - الدار البيضاء - الطبعة الأولى - ١٩٨٦ - ص٦١.

المختلفة، نجد كاسيير Casserer، يعود قليلاً إلى الوراء ليعاود بعد ذلك الصعود بشكل منهجي عبر تاريخ الأفكار، حيث أنه يقول فى هذا الصدد: «**إننا نصطدم هنا بصعوبة ترتبط بالحالة الراهنة للمنطق وبتطوره التاريخى. إننا نتوفر منذ أفلاطون على منطق للرياضيات ومنذ أرسطو على منطق للبيولوچيا، والمفهوم الرياضى الخاص بالعلاقة، والمفاهيم البيولوچية الخاصة بالجنس والنوع تم تثبيتها بطريقة صلبة، حيث سيقوم كل من ديكارت، ليبنتز وكانط ببناء منطق العلوم الرياضية للطبيعة. وسنحضر فى النهاية فى القرن ١٩ إلى الخطوات الأولى "لمنطق للتاريخ" وبالمقابل فإنه إذا نظرنا نحو جانب المفاهيم الأساسية للسانيات، والعلوم الفنية والدينية، سنفاجأ بملاحظة أنها دائماً مشردة وبدون جنسية ولم تجد مكانها الطبيعى فى النظام المنطقى**» (١). وتأكيدا على الطابع المتمايز للمفاهيم الخاصة بالعلوم التجريبية عن تلك المرتبطة بالعلوم الإنسانية يقول الفيلسوف «**لقد أيدنا بأن مفاهيم الشكل والأسلوب الخاصة بالعلوم الثقافية، تتفرق بشكل واضح على تلك الخاصة بالعلوم الطبيعية مثلما تتفرق (=تختلف) عن تلك المرتبطة بالتاريخ، وبأنها تشكل فى حد ذاتها قسماً من المفاهيم الفريدة**» (٢).

ورغم ذلك الطابع الخاص الذى يتميز به المفهوم فى كل حقل معرفى فإن هناك نوعاً من التكامل ما بين مختلف المعارف والمفاهيم فى شتى المجالات خاصة فى إطار الفلسفة والعلوم، حيث أن المفاهيم العلمية كثيرا **ما تلعب دور المحدد والمقنّن** للمفاهيم الفلسفية، وفى سياق غير بعيد عن هذا المعنى يشير «باشلار» G. Bachelard إلى العلاقة ما بين الفكر والعلم والفلسفة بقوله: « **نشدد لحظة على هذا المفهوم للتقدم الفلسفى. فهذا مفهوم ضئيل المعنى فى الفلسفة الخالصة. وربما لا يخطر فى بال أى فيلسوف القول أن ليبنيتز متقدم على ديكارت، وأن كانط متقدم على أفلاطون. إلا أن اتجاه التطور الفلسفى للمفاهيم العلمية شديد الوضوح لدرجة أنه ينبغى الاستنتاج بأن**

---

(١) Ernest Casserer : Logique des sciences de la culture : cinq études traduit de l'allamand par jean Larro avec la collaboration de joel Gaubert les editions de Cerf Paris. 1991. P.36.

(٢) Ibid. P. 149

المعرفة العلمية تنظم الفكر، وإن العلم ينظم الفلسفة ذاتها. إذ يقدم الفكر العلمى أساساً لتصنيف الفلسفات ولدراسة تقدم العقل» (١).

لنعد قليلا إلى كاسيرر لنشير إلى أنه بعد أن حاول فى كتابه "منطق العلوم الثقافية" أن يضع مكاناً مستقلا، للمفاهيم التاريخية والأكسيومائية، فإنه يعود ليتساءل مرة أخرى عما إذا كانت مفاهيم الشكل والأسلوب تتوفر على نفس الاستقلالية فى مواجهة الإشكالية البسيكولوچية. ثم ينتقل بعد ذلك طرح انشغالات بعض المفكرين فى ميدان العلوم الإنسانية حيث يقول: « **أن وولفلان Wolfflin يتضايق فى كتابه "المبادئ الأساسية لتاريخ الفن" عن أنه فى "تاريخ الفن" البحث المفاهيمى لم يتقدم بنفس الخطوات التى تخص المظاهر التجريبية»** (٢). ويحاول «كاسيرر» أن يذلل هذه الصعوبة المنهجية بتأكيده على أننا لن نفهم علماً فى بنيته المنطقية إلا إذا أدركنا بوضوح بأية طريقة ينهى تضمنه للخاص تحت العام. لكننا فى المقابل لو تأملنا جيداً ذلك التأكيد لتبين لنا أن البنية المنطقية التى يتحدث عنها الفيلسوف والمتمثلة فى إدماج الخاص فى العام هى عبارة عن تقنية نظرية ترتبط بكل مجالات التفكير البشرى وبكل العلوم مهما كان نوعها ولا يمكن بالتالى أن يتكون المفهوم بالاعتماد فقط على مثل تلك التقنية.

يحاول كاسيرر فى موضع آخر تجاوز التفرقة المبالغ فيها ما بين مفاهيم العلوم الطبيعية والعلوم التاريخية، قائلا: «**لم يكن أبداً حلاً مرضيا فعل مقابلة "المفاهيم العامة" المرتبطة بالعلوم الطبيعية بتلك "المفاهيم الفردية" الخاصة بالعلوم التاريخية، لأن مثل تلك التفرقة تزيح، إذا صح القول، كل حياة عن المفهوم، فكل مفهوم يريد أن يكون، انطلاقا من وظيفته المنطقية، "توحيداً للمتعدد"، وعلاقة ما بين الفردى والعام. وإذا فصلنا أحد هذين العاملين، فإننا سنحطم "التركيبة" التى يسعى كل مفهوم، باعتباره كذلك، إلى أن يحققها»**(٣).

إن اندراج أو تضمن الخاص فى العام لا يتم بنفس الطريقة أو هو ليس متماثلاً فى كل العلوم وهو ما يبدو جلياً إلى حد بعيد إذا قمنا بملاحظة نظام المفاهيم الرياضية

---

(١) غاستون باشلار - فلسفة الرفض - ترجمة خليل أحمد خليل - دار الحداثة - بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٨٥ - ص٢٢.

(٢) E. Casserer op cit. P.155.

(٣) Ibid. P.157.

وقارناه بنظام المفاهيم التجريبية الخاصة بالعلوم الطبيعية. ولتبيان وتوضيح خصوصية كل نظام معرفى يشير «كاسيرر» إلى أنه فى الفيزياء لا يمكن لأى معدن مهما كان نوعه أن يكون متضمناً فى مفهوم «الذهب» إلا بشرط توفره على الخصائص القاعدية الموجودة فى الذهب، وكذا كل الصفات المترتبة عن تلك الخصائص، وسنصاب بخيبة الأمل إذا انتظرنا بأن تسيير الأمور بمثل تلك الدقة فيما يخص العلوم الثقافية.

على أنه وإذا أخذنا مثال رجال عصر النهضة - كما يشير دائماً كاسيرر - وقلنا بأنهم متوحدون أو مشتركون فى معارضتهم واختلافهم مع رجال العصر الكنسى، فإن النتيجة التى سنخلص إليها، بالرغم من أننا لا يمكن أن نلصق بهم خصائص وصفات مشتركة مثلما هو الحال بالنسبة لما يتضمنه مفهوم الذهب، هى أنه وبالرغم من ذلك أو ربما بفضل التعارض الذى نلاحظه بين شخصيات ورجال عصر النهضة فإن كل واحد منهم يساهم ويشارك فى تأسيس ما نسميه بفكر وثقافة النهضة، فالأفراد المختلفون يكونون مجموعة، ليس لأنهم متجانسون أو متطابقون فيما بينهم. ولكن لكونهم يشاركون أو يسهمون فى مهمة مشتركة يجوز أن نعتبرها جديدة بالمقارنة مع القرون الوسطى، مثلما هو مرتبط بالروح الأصلية لعصر النهضة. كما أن المفاهيم الممكن اعتبارها حقيقة لأسلوب العلوم الخاصة بالثقافة تعود كلها إلى المفاهيم المماثلة "للروح"، فالأسلوب الفنى لفترة ما لا يمكن أن يتحدد إذا، لم نكثف فى كل موحد التعابير الفنية، التى قد تبدو فى غالب الأحيان متباينة ولم ندرجها، حسب صيغة «ريغل» Riegel ، مثل التعابير المرتبطة ببعض «التعابير الفنية»، فمفاهيم من مثل ذلك الجنس يمكن أن توصف ولكنها غير قابلة للتجديد.

هناك من ناحية أخرى ارتباط واضح بالنسبة «لكاسيرر» ما بين عملية الإدراك ومسألة تكوين المفاهيم. كما أن طرح عامل الإدراك وارتباطه بالمفهوم له علاقة بالإشكالية البسيكولوجية التى سبق أن أشار إليها «**فالإدراك فى حد ذاته - البصر، السمع، اللمس - هو الذى يقوم بالخطوة الأولى وكل تكوين للمفهوم يجب أن يفترض ويرتب من ذلك المنطق**» [1]. كما أن «**الفرق - مثلما يصف كاسيرر - ما بين مفهوم الأسلوب من جهة ومفهوم الشيء من جهة أخرى. يعبر داخل لغة منطقية**

---

(١) Ibid. P.162.

محضة، عن الفرق ذاته الذى صادفناه أعلاه فى بنية الإدراك. وبذلك يمكن القول بأنه يمثل الترجمة المنطقية لنوع من الاختلاف فى التوجيه والتى، انطلاقا من ذلك، لا تبرز فوق أرضية المفاهيم ولكن جذورها بدأت فى الانعزال عن التربة [العضوية] للإدراك. فالمفهوم يصوغ هنا بنمط "وصفى"، ما يتوفر عليه الإدراك فى صورة معرفة "حدسية" محضة» (١).

إن إنتاج المفهوم يرتبط بإنتاج الثقافة والمعرفة عموماً، سواء تعلق الأمر بالعلوم الطبيعية، وهو ذات الشيء الذى سعى «كاسيرر» إلى ترصده إلى حد ما عند «هيبوليت تين» Hypolyte Taine يقول: **«إن الصعوبة التى نصطدم بها هنا تحيل إلى مشكل يعتبر عاماً فى الأساس والذى يتعارض معنا. إن عاجلاً أو آجلاً، عند كل استعمال لمفاهيم العلوم الثقافية، فى العلوم الطبيعية، فنحن نعتقد أن الموضوع يوجد مباشرة تحت أعيننا، حقيقة، فتحليل متقدم لنظرية المعرفة ينبئنا بشكل سريع عن أى كمية من المفاهيم، بكل تعقيداتها، تتطلب تحديد خصوصية ذلك "الموضوع" حتى ذلك الخاص بالفيزياء، الكيمياء، البيولوچيا»** (٢). ولكن مثل ذلك التحديد نجده يتبع دائماً نوعاً من التوجيه يبقى ثابتاً، لذلك فنحن نقترب فى الحقيقة - كما يرى كاسيرر - من الموضوع لنحصل على معرفة دقيقة دائماً، فبالنسبة مثلاً لموضوع العلوم الثقافية يمكن القول أنه يتطلب صيغة أخرى من الفحص، لكونه يتواجد فى واقع الأمر خلفنا. رغم أنه يبدو مع الوهلة الأولى أكثر ألفة وانفتاحا من أى موضوع آخر. إن الثقافة تبدع بغير انقطاع أو توقف، رموزاً جديدة خاصة باللغة والفن والدين. وبالتالى فإن من مهام العلم والفلسفة فى المقابل أن يقوما بتفكيك تلك اللغة الرمزية وعناصرها من أجل التوصل إلى فهمها. وعلى الفلسفة والعلم أيضاً أن يتناولا عن طريق التحليل ما كان متوالدا أو ناتجاً عن التركيب.

وفى نهاية التحليل يسعى«"كاسيرر" إلى إبراز خصوصية كل من العلوم الثقافية والعلوم الطبيعية وهو تفرد أو تميز يعود فى الأصل إلى طبيعة كل موضوع "فالعلوم الطبيعية تعلمنا حسب تعبير كانط "أن نقرأ بصعوبة الظواهر، لنكون قادرين على

---

(١) Ibid. P. 161.

(٢) Ibid. P. 175.

قراءتها كتجارب "والعلوم الثقافية تعلمنا تأويل الرموز من أجل كشف المضمون الخفى، ومن أجل أن نعيد من جديد بشكل واضح الحياة التى خرجت منها فى البداية»[١].

ومن الخصائص الأخرى التى تتميز بها المفاهيم هناك طابعها الجدلى الذى يجعلها تتوفر على القدرة على العيش والتمفصل فى محيطها المعرفى غير بعيد عن بيئتها المعرفية «الأصلية» لذلك فإن غاستون باشلار يدعونا إلى الاحتراس من انعدام الطابع الجدلى للمفهوم «**إذ يتوجب الحذر - فى اعتقاده - دائماً من مفهوم لم نتمكن بعد من جعله مفهوماً جدلياً. وأن ما يمنع جدليته هو العبء المضاف إلى مضمونه. فهذا الإثقال يمنع المفهوم من أن يكون متحسسا، وبمرونة، بكل تغايرات الشروط التى يستمد منها وظائفه الصحيحة. والمؤكد أن هذا المفهوم تعطى له معان كثيرة لأنه لم يفكر به أبداً بطريقة شكلية. ولكن إذا أعطى معان كثيرة، يخشى ألا يعطيه عقلان مختلفان المعنى نفسه. من هنا الاضطرابات الدلالية العميقة التى تحول دون الفهم المتبادل بين أهل زماننا...**» [٢].

فترحيل مفهوم من مجال معرفى إلى آخر يرتبط بمزالق منهجية لاحصر لها.

وإذا كان التجريد كما سبق أن أشرنا يعتبر أحد الأعمدة الأساسية فى تشكيل المفهوم فإن لكانط رأياً آخر يذهب إلى حد التعارض مع النظرة السائدة فى هذا المجال فالتجريد بالنسبة لصاحب «نقد العقل المحض» «**ليس سوى شرط سلبى فى تكوين المفاهيم [فهو يرى بأننا] نكوّن المعانى المجردة notions عن طريق المقارنة، وعن طريق التفكير فى النوايا الممنوحة للصفات المشتركة، ومن خلال التجريد وإسقاط كل ما يسمح بالتمثيلات المعطاة بأن تكون متميزة**» [٣]. أما فيما يخص «كوندباك» فإن «**تكوين الأفكار العامة ليس سوى حيلة من أجل خلق الانسجام والنظام داخل أفكارنا**» [٤].

وإذا كنا حتى الآن قد تحدثنا عن المفاهيم داخل العلوم والفلسفة كواقع قائم لاجدال فيه فإن "غونجير" Granger" يعود بالاشكالية قليلاً إلى نقطة البداية ليتساءل

---

(١) Ibid. P. 175.

(٢) غاستون باشلار - مرجع سبق ذكره - ص ١٥٠، ١٥١.

(٣) Histoire de la Philosophie: les problème et les écoles paul Janet et Gabriel Séailles: Quinzième EZdition librqire de la gare Paris 1932 : P. 545.

(٤) Ibid..P. 539.

عما إذا كان ممكنا الحديث عن المفهوم فى الفلسفة، ما دام المفهوم فى صيغته الكاملة والمضبوطة يظل مرتبطا بالفكر العلمى، لذلك نجده يربط أساساً ما بين العلم والمعرفة اللذان يحافظان بدورهما على إرتباطهما بدورهما بالموضوع.

«فكل معرفة علمية هى معرفة لموضوع وكل معرفة بموضوع متماسك وفعال لا يمكن أن تكون علمية»(١).

"غرنجير" وبعد استعراضه لمجموعة من الصعوبات المرتبطة بتشكل المفهوم الفلسفى، يصل إلى القول: **«إذا كان المعيش** le vécu **لا يمنح نفسه للفيلسوف، بوصفه يعمل على استدعاء بناء خاص بالمواضيع، فذلك يعود إذن لكونه يمنح نفسه كتعبير وتمثيل، الأمر الذى يستدعى تفسيرا وتأويلا لما يعنيه ذلك الشىء. وفى هذا السياق يكون المفهوم الفلسفى عبارة عن"ما بعد المفهوم** meta concept" **أو المفهوم الواصف»**(٢).

ويضيف المؤلف قائلا مرة أخرى: **«المفهوم الفلسفى، كأى مفهوم آخر مبنى على شكل عقد من العلاقات، وليس مأخوذاً كحدس دقيق، ويمثل العمل الفلسفى، الخاص بعملية "المفهمة"** conceptualisation**، على الأقل فى إحلال محل ما يتم استيعابه مباشرة من أشياء خاصة بمعيش مركب ومنضد ومفزع، شكلا ترتيبيا من العلاقات. ولكن تلك "العلاقات" لا يتم تحويلها إلى رسوم بيانية مجموعاتية على غرار تلك المنجزة، سواء بواسطة تعريف راسل** Russell **للعلاقة كقسم للزوج أو انطلاقا من "المعنى المجرد" للألفاظ والمقولات»**(٣). فأن يكون المفهوم الفلسفى - كما يواصل الكاتب الإشارة إلى ذلك - مفهوماً بالمعنى الحقيقى والكامل للكلمة، ولكن ضبابى وملتبس، وأن تكون الفلسفة بالتالى معرفة بالمعنى الحقيقى للكلمة، ولكن لا تمثل نظاماً استنباطياً لرياضيات كونية Mathesis universalis ، ذلك هو بالتحديد ما يصعب الإبقاء عليه، فى الوقت الذى لا يمكن تأكيده إلا من خلال تحليل الأنماط البرهان التى

---

(١) Gilles - Gaston Granger : Pour la connaissance philosophiques Editions ODILE JACOB Paris janvier 1988. p.151.

(٢) Ibid. P.157.

(٣) Ibid. P 163.

تمارس على تلك المفاهيم الغريبة. ويصل "Granger" فى الأخير إلى استنتاج فيما يخص تكوين المفهوم الفلسفى، نعتبره فى هذا السياق، مهما للغاية، فهو يشير إلى أن «**تكوين المفاهيم الفلسفية، هى مسألة أسلوب وليست مسألة اكتشاف للماهيات، وبالتالى ففى سياق هذا المعنى، فإن كلمات الفيلسوف لا تحيل، لا إلى أشياء، ولا إلى أفعال حقيقية، إنما تهدف فى الحقيقة إلى توضيح تنظيمات "غير دقيقة" لكونها لا تتسم بنزوع موضوعى** objectivantes **بالنسبة للمفاهيم، وهى بالتالى تنظيمات تقدم كمظاهر معاشة، وليس كنظريات، وعن كل ذلك ينتج، أنه ليس معقولا فى الأساس تصور خطاب فلسفى يخلو كلية من أى مفهوم طبيعى، ولكن على العكس من ذلك، فإن المفهوم الفلسفى ينتج فى العادة انطلاقا من تلك المفاهيم**»[1].

لقد ناقشنا حتى الآن المميزات المتعددة للمفاهيم باعتبارها تشكل حجر الزاوية فى أى إبداع علمى - فلسفى محتمل . لكن الذى لم يخطر على بالنا هو أن نعثر بداخل الأسرة الفلسفية على من يشكك فى البديهية التى حاولنا حتى الآن إبراز أهميتها القصوى. فالفلسفة البرجسونية على سبيل المثال « **تعرف أساساً بأنها تخط لما كدسه الغرب من مفاهيم فلسفية وعلمية لمحاولة التواصل تواصلا "مباشراً" و"مطلقاً" مع الأشياء**(*). **إن البرجوسنية محاولة لإعادة التواصل المعرفى علماً وفلسفة، من خارج شبكة المفاهيم وعلى أرضية مخالفة تماماً لأرضية المعرفة الموضوعية**»[2]. وهكذا فإن برجسون، كما يشير إلى ذلك "عمر الشارنى" فى كتابه: "المفهوم فى موضعه. . "، يدعو صراحة إلى التخلى عن القطيعة التى أحدثتها فلسفات المفاهيم ما بين الذات والموضوع «**فعندما يتعلق الأمر بالعلاقة بين المفهوم والحياة فإنه ينبغى أن نلاحظ (...)، أن المفهوم ليس أصليا بل هو لاحق وتابع. فالمفهوم أداة، وهو أداة استعملتها الحياة وتستعملها لأغراض محددة فى علاقتها بالمحيط، فهو وسيط أو "توسط"** médiation**، بين العضوية والحياة. فذلك هو الوضع الابستمولوجى للمفهوم**»[3].

---

(١) Ibid. P.175.

(*) نعتقد أننا لسنا هنا بصدد الحديث عن المفاهيم من وجهة نظر مذهبية كما هو واضح فى إطار الفلسفة الكلاسيكية (الفلسفة التصورية أو المذهب الأسمى. .).

(٢) عمر الشارنى - مرجع سابق ذكره - ص١٩.

(٣) المرجع نفسه - ص٢١.

ويلخص لنا "عمر الشارنى"، فى النهاية موقف برجسون فى هذا المجال فى ٥نقاط نعتبرها مهمة من حيث أنها تلخص جزءاً هاماً من فكر الفيلسوف لذلك فإننا نثبتها فى هذا المجال تامة غير منقوصة

« ١- يندد - برجسون - بهيمنة المفاهيم والفلسفة المفهومية من حيث أنه يزحزح هذه الدغمائية الجديدة ويقدم نقدا مرتبا ومتواصلا لمختلف حلقاتها.

٢ - يقدم تمشياً بديلا عن التمشى المفهومى من حيث أنه يعوض المفهوم بالحدس ويدعو إلى معرفة أكثر "عمقا" وأكثر "دقة" عن طريق الاتصال الحميم بالأشياء فى ذواتها أو فى بعدها الداخلى: "المطلق"، "المباشر"، "الدائم".

٣ - يبرز كيفية تشكل المفاهيم تاريخياً وبيولوچيا انطلاقا من الكائن الحى فى حركته الأولى بل ربما انطلاقا من التفاعلات الكيميائية.

٤ - يرصد المصدر الحقيقى لنشوء المفاهيم وتكونها فى العادة لدى الإنسان، وفى نظام الطبيعة عموما، هذا النظام الذى يبدو أنه يضعنا أمام هذا السؤال المحير، هل أن الطبيعة حاملة فى ذاتها الشىء أو لنمط من التفكير، بحيث يمكن القول أنها تعى ذاتها وتفهمها؟

٥ - يكشف عن هذه القاعدة الفلسفية الأساسية التى تبقى موضوعة للنقاش: لايمكن أن نؤلف مفاهيم الواقع إلا على أساس واقع المفاهيم»[1].

إن الدعوة البرجسونية إلى تجاوز ما يسميه بهيمنة المفاهيم من أجل وعى العالم بشكل كامل غير مقسم إلى أجزاء على اعتبار أن الفلسفة هى بمثابة مجهود يسعى إلى الذوبان فى الكل، لا يمكن أن تكون فى اعتقادنا مثمرة وقد لا تتجاوز فى حالة الفحص الجيد للوضع الابستمولوجى للمفهوم، كونها عبارة عن محاولة لإضفاء قليل من الضباب الجدالى على وضع فلسفى ثم بذل الكثير من الجهد والإبداع من أجل صفائه وجلائه. وإذا كان أصحاب الوضعية المنطقية ينفون هم الآخرون عن المفهوم أى

---

(١) المرجع نفسه - ص٢٤.

محتوى معرفى، نتيجة لمبالغتهم فى التحليل الصورى للغة، فإن الجهد الأساسى للتفكير الفلسفى وحتى العلمى يبقى مرتبطا بعملية تشكيل مفاهيم قادرة على صياغة الإبداع البشرى فى أشكال وصيغ متطورة وقابلة لأن تستوعب. فأهمية أى فيلسوف مثل برجسون نفسه **«تأتى من أنه يحاول أن ينشىء ويصوغ مفاهيم، لا لأنه يجتزئ بالمناداة بعجز اللغة عن البحث عن المطلق»**[1].

٣ - الفضاء العام للمفهوم :

لقد مر "المفهوم" بعدة مراحل تاريخية لم تكن دائماً سهلة أو واضحة المعالم، حتى وصل إلى وضعيته الحالية، **«فتاريخ الفلسفة وهو كما نعلم تتويج لتاريخ الفكر عموماً، يبدو أنه يكشف عن مسيرة تاريخية عسيرة قطعها المفهوم للمرور من وضع الكائن الفكرى البحت، المرتبط ارتباطاً تاماً بالذات البشرية، إلى وضع الكائن الموضوعى، المستقل عن ذات البشر ووعيهم، بل المشكل لتلك الذاتية، وذلك الوعى»**[2]. وانطلاقا من موقف «ديزانتى» من العلاقة ما بين الفلسفة والعلم يستخلص "عمر الشارنى" الملاحظة الثانية :

« ١ - أن الفيلسوف لم يكن يوماً منتجاً للعلم أو للمفاهيم العلمية وإن هو أنتجها [فقد] أنتجها بصفة عرضية، ويعنى ذلك أننا لا نستطيع أن نذكر من الفلاسفة الذين كانوا حقاً علماء إلا ما قل ونذر، مثل أرسطو وليبنتز.

٢ - أن الفيلسوف يسطـو على المفاهيم حيثما نشأت وظهرت لينقلها إلى أرضـه، أى يقول حقيقتها التى لا تقولها بذاتها، ليجعلها تعبر داخل خطابـه وبألفاظه (...)»[2].

إن المفاهيم تختلف اختلافاً كبيراً من حيث أهميتها وإجرائيتها ومن حيث قدرتها على الإثارة أو إحداث "الاكتشاف" العلمى والإبداع الفلسفى أو التعجيل به أو حتى المساهمة الضمنية والمحتشمة فى بروزه. فالمفهوم على العموم يساعدنا على التفكير

---

(١) مجلة المناظرة - مرجع سابق - ص٢١.

(٢) عمر الشارنى - مرجع سابق - ص٣٢.

(٣) المرجع نفسه - ص٣٤.

لذلك فإن عملية التفكير فى المفهوم لا تتوقف إلا بتوقف المفهوم عن الوجود وذلك ما يجعل عملية التمييز ما بين المفهوم الحى وما يمكن أن نعتبره مفهوماً "ميتا" شيئاً يكاد يكون مستحيلاً. فالمفهوم الحى هو الذى يساعدنا على التفكير النظرى المنظم ويحفزنا ويدفعنا إلى الإنتاج بل، هو الذى يؤدى فى أغلب الأحيان إلى إبداع مفهوم علمى تابع له، وهو ذات المفهوم الذى يمكنه أن يؤدى إلى بلورة موقف - مثلما يشير إلى ذلك عمر الشارنى - أخلاقى أو سياسى أو حتى مذهب فلسفى. وذلك فى المقابل ما يمكن وصفه بالمفهوم "الميت" الذى يكون عادة عاجزاً على القيام بدفع عملية التفكير وبالتالى فإن وصوله إلى تلك الحالة من "العقم" النظرى والإبداعى يشكل نقطة بداية لتبلور وبروز مفهوم آخر مغاير بالنسبة إليه، يكون أكثر قدرة على الإحاطة بالإشكاليات والمواضع المطروحة.

إن المفهوم فى آخر المطاف« **ينتمى إلى كل يشبه النظام أو البنية المتحركة الفاعلة والمؤثرة لاحتوائها فى ذاتها على حركة وفعل وتأثير - لذلك فإن المفهوم ينتج عن غيره من المفاهيم والمقولات- [فلا] يمكن أن نتصور المفهوم يظهر فى أرض جرداء قاحلة. ذلك أن المفهوم وحدة من وحدات الخطاب الذى يتألف من عناصر مختلفة**»[1].

وإذ أردنا أن نبحث عن مكان المفهوم فى إطار خطوات الاستدلال التجريبى كما صاغها كلود برنار، فإننا سنصل إلى استخلاص أن المفهوم فى إطار خطوات الاستدلال التجريبى كما صاغها كلود برنار، فإننا سنصل إلى استخلاص أن المفهوم يتموقع «**على صعيد القانون الذى هو فى نظر كلود برنار علاقة ينظم بها الفكر ظواهر نقلتها الملاحظة فى اضطرابها ، بحيث يبدو التمييز بين القانون والمفهوم قائماً على مجرد خلاف فى الصيغة أو التعبير**»[2]. غير أن كلاما مثل هذا يبدو عاماً إلى حد بعيد ولايحيل إلى نقاط التقاطع الموجودة بين المفهوم والقانون، لذلك فإن عمر الشارنى يلجأ إلى توضيح طبيعة العلاقة بالاستناد على مثال من البيولوچيا فحينما نقول أن الحيوانات تتغذى من أجسامها عندما يتعذر عليه اللجوء إلى غذائها الطبيعى نكون آنذاك قد أثبتنا قانونا مستخلصا من علم الأحياء. أما عندما نريد أن نلخص ذلك القانون "التآكل

(١) المرجع نفسه - ص ٤٠.

(٢) المرجع نفسه - ٤١..

الذاتي" Autophagie. وحتى وإن كان المفهوم يتجلى بشكل بارز فى القانون باعتباره يمثل آخر خطوة من خطوات الاستدلال التجريبى والعلمى فإن العلم فى واقع الأمر لايخرج عن نطاق المفاهيم . . . منها يبتدأ وإليها ينتهى.

من جهة أخرى، وتوضيحا للطابع المرن للمفاهيم التى يختلف موقعها وتتأرجح أهميتها بشكل متواصل نستطيع أن نقول أنه عادة «**ما يقع استخدام مفاهيم "شائعة" أو موروثة لإنتاج أخرى جديدة "مرموقة" ولكن ذلك لا يمنع الأولى من أن تكون مفاهيم، رغم طابعها الشائع والمشترك، ولا الثانية من أن تصبح بدورها "شائعة" مشتركة فى يوما ما**»[1]. ويأخذ التعارض ما بين المفاهيم دوما أشكالاً مختلفة وصيغاً متباينة حتى فى مجال الرياضيات التى تعتبر من أكثر الاختصاصات دقة ويقينا، حيث نجد أن هناك فرقا ما «**بين سلسلة من المفاهيم "الساذجة"، أو التى تعتقد أنها الحقيقة الكلية والوحيدة والأولية، والمفاهيم "الفطنة" avertis التى تعلم وتعى كيفية وجودها (أو إنتاجها) وحدود إنتاجها، وتعلم أنها لا يمكن أن توجد إلا داخل هذا "الفضاء" أو "الإطار" الذى ينتجها ويسند إليها معنى**»[2].

إننا نعتقد مع "أومبيرتو ايكو UMBERTO ECO" - كما يوضح ذلك فى كتابه "السيميوطيقا وفلسفة اللغة" - بأن «**الفيلسوف يحاول أن يصنع مفهوماً يسمح عموماً بتأويل جملة من الظواهر، ويعطى للآخرين إمكانية تأسيس تأويلاتهم الجزئية**»[3].

وذلك ما يعنى أننا فى مواجهة تأويل مزدوج فهناك ارتباط وثيق ما بين الرمز والمفهوم واللغة والحقل الدلالى.

والمفهوم يتخذ صفته النظرية والإجرائية من ارتباطه أو انبثاقه من مجال معرفى معين، يشكل عنصر هويته الأساسية ويشكل أيضاً أداة من أدواته التحليلية والتنظيمية، وتبقى إذن بنية المفهوم وطابعه النظرى ومدى انغلاقه أو انفتاحه، وصلابته أو هشاشته

---

(١) المرجع نفسه - ص٤١، ٤٢.

(٢) المرجع نفسه - ص٤٣.

(٣) Umberto Eco : Sémiotique et philosophie de langage PUF Paris 1988. P.13.

ومن ثمة قدرته على العيش أو الذوبان مرتبطة بحقل معرفى معين. فالمفهوم السياسى أو التاريخى على سبيل المثال كثيرا ما يكون عرضة للتبدد والضياع نظراً للاستعمال الشاسع والاستغلال المفرط للمفاهيم المنتمية لذلك الحقل المعرفى، وخاصة عندما لا يصحب مثل ذلك التوظيف، تنظيم "تقنى" لدلالة المفهوم أو تحديد لمجال الأرضية التى يراد أن يؤطرها المفهوم ويشكل غطائها النظرى والفكرى. فى حين نلاحظ أن الأمر يختلف بالنسبة للمفهوم العلمى أو المنطقى، وعموماً فإننا كلما ابتعدنا عن المجال الأصلى لإنتاج المفهوم ووسعنا من مجال نشاطه، نجده يفقد تدريجياً خصائصه المكونة لهيكله العام.

و"المفهوم" مثله فى ذلك مثل "النظرية" لا يمثل المعرفة إنه يسمح فقط بحدوثها. كما أن «**النظرية ليست هى الوصول، إنها إمكانية انطلاق، النظرية ليست حلا، هى إمكانية معالجة إشكال ما، وبتعبير آخر، النظرية - كما يؤكد موران** Edgar Morin **- لا تنجز دورها المعرفى** cognitif **ولا تأخذ حياتها إلا من خلال الاستعمال التام للنشاط الذهنى للموضوع. وهذا التدخل [الذى يقوم به] الموضوع هو الذى يعطى للفظ منهج** Méthode **دوره الضرورى**»[1]. والمنهج بدوره يمثل النشاط التنظيمى الضرورى للنظرية، وبالتالى فإننا نعتقد بأن هناك ارتباطا وثيقاً ما بين : المفهوم والنظرية والمنهج.

٤ - المفهوم واللفظ :

حول معنى اللفظ نجد أن برتراند رسل B. Russell فى كتابه: "كتابات المنطق الفلسفى"، يشير إلى «**أن كل ما يمكن أن يشكل موضوعاً للفكر أو يمكن أن يتواجد فى أى قضية صادقة أو كاذبة، أو يجوز اعتباره كواحد "un"، أسمية لفظا**»[2]. ويتعلق الأمر إذن بالكلمة الأكثر عمومية فى مفردات اللغة الفلسفية، وقد كان من الممكن جداً - كما يضيف رسل- أن نفكر بأن كلمة بمثل تلك العمومية الكبيرة لا تمثل سوى القليل من الأهمية . لكن هذه النظرة تعتبر، خاصة إذا ما صدقنا بعض النظريات الفلسفية الواسعة الانتشار، مضحكة، فاللفظ فى الأساس يمتلك كل الخصائص، المنسوبة عادة للجواهر أو للأسماء. إن كل لفظ هو فى الأساس موضوع منطقى وهو كذلك غير متغير ودائماً غير قابل للتلف، لذلك فما هو لفظ يبقى كذلك ولا يمكن تصور أى تغير

---

(١) Edgar Morin : science avec conscience Fayard 1982. P.314

(٢) Bertrand Russell : Ecrits de la logique philosophique PUF Paris. P.74.

يحدث بداخله ولا يهدم هويته ولا يجعله بالتالى غير ما هو. والألفاظ تتميز من جهة أخرى بالهوية الكمية فى علاقتها مع ذاتها وبالتنوع الكمى فى علاقتها مع باقى الألفاظ، لأن الهوية الكمية unmérique والتنوع هما معا منبع الوحدة monisme ويبدو أنه من المؤكد أن كل عنصر من مكونات كل قضية يمكن أن نعتبره على أساس أنه واحد، ولا وجود بالتالى لأية قضية لا تشتمل على الأقل على مكونين أو مركبين. واللفظ هو فى النتيجة حسب "رسل" كلمة مهمة، لكونها تظهر اختلافات مع فلسفات متعددة، ولكوننا أيضاً من خلال مجموعة من البيانات والتوضيحات، نريد أن نتكلم عن أى لفظ أو عن بعضها.

ونستطيع دائماً حسب رأى الفيلسوف أن نميز بين نوعين من الألفاظ يسميها بالأشياء والمفاهيم. فالأشياء هى التى تشير إليها أسماء الأعلام، والمفاهيم تشير إلى كل باقى الكلمات، ويأخذ "رسل" اسم العلم هنا بمعنى أوسع من المعنى العادى، كما وأنه فى نطاق الأشياء تدخل كل النقاط واللحظات الخاصة والمتميزة وعدد كبير آخر من الكيانات والجواهر التى لا تسمى عادة بالأشياء. ويجب فى اعتقاد "رسل" أن نميّز دائماً بين نوعين من المفاهيم، تلك التى تشير إلى نعت أو صفة وتلك التى تشير إلى أفعال، فالأولى تسمى فى الغالب بمحمولات أو مفاهيم الأصناف، والثانية هى دائماً أو تكاد تكون علاقات.

هناك من ناحية أخرى مفهومان لهما، بالإضافة إلى التنوع الكمى الذى يمتلكانه بوصفهما لفظين، نوع آخر من التنوع الذى يمكن أن نسميه مفهومى conceptuelle والتنوع المفاهيمى يستلزم التنوع الكمى، ولكن العكس ليس صحيحاً، ما دام أن كل الألفاظ ليست مفاهيم. فالتنوع الكمى كما يشير إلى ذلك اسمه، هو منبع الكثرة والتعدد المفاهيمى. ويتساءل "رسل" فى موضع آخر عما إذا كان من الممكن للمفاهيم أن تتحول إلى مواضيع منطقية دون أن يتم تغيير المعنى.

كما أن علاقة اللغة بتكوين المفاهيم والأفكار تعتبر جد حيوية ومصيرية فى مجال الإبداع البشرى فى كل ميادينه، ولو تأملنا جيداً المنظومات الفكرية والعلمية المختلفة لوجدنا بأنها تركز فى جزء كبير منها على اللغة «**فالإنسان الذى لا يعرف إلا الأشياء هو إنسان بدون أفكار، فداخل اللغة توجد الأفكار**»[1]. ونستطيع أن نقول فى هذا

(١) Alain : Eléments de philosophie NFR Editions Gallimard Paris 1941. P.163.

السياق أن إنتاج الأفكار والمعارف يخضع إلى حد كبير لطبيعة اللغة المستعملة وخصوصياتها، فالفلسفة اليونانية متأثرة إلى حد بعيد ببنية وفضاء اللغة اليونانية، والفلسفة الألمانية يمكن اعتبارها تكثيفا شديدا ومبدعا للغة الألمانية «**فالألمانى يصنع باللغة ما يصنعه عالم الآثار بالأرض**»[1]. ونستطيع أن ندلل على العلاقة المتميزة، إلى حد الاستثناء الضيق، ما بين الإبداع فى مجال الفلسفة الألمانية واللغة الألمانية من خلال تأمل الصرح الفلسفى البارز لمارتن هيدجر فهو يجب«**أن يعود بالكلمات إلى معناها الأصلى المطابق لاشتقاقها. وقد يصل ذلك إلى حد التعسف الظاهر، وعلى الخصوص فى تحليله لألفاظ اللغة اليونانية. مثل اسم الحقيقة (اليثيا) من حيث أنه يفيد اللاتحجب أو عدم التخفى. ذلك أن اللغة اليونانية. فى نظره، ليست مجرد لغة اللغات الأوروبية المعروفة، فاليونانية وحدها (لوغوس) فنحن، بالكلمة اليونانية المسموعة، نكون فى حضرة الشىء الواقع أمامنا مباشرة لا فى حضرة معناه**»[2]. كما أن شغف هيدجر باللغة عموما واللغة اليونانية بشكل خاص جعله يستثمر خبايا اللغة الألمانية إلى أبعد الحدود وينحت انطلاقا منها مفاهيم ظلت حتى وقت قريب مستعصية على الترجمة إلى لغات أوروبية أخرى لها نفس بنية اللغة الألمانية تقريبا، فقد «**استغل هيدجر اللغة الألمانية لكى ينفذ بفكره إلى الوجود، فشكل كلمات جديدة وأكثر من الترادفات [...] وقال عن هذا الولع عنده بالتلاعب بالألفاظ: "إذا ما سمح لى بأن أتحدث هنا عن لعب فإننى أقول: لسنا نحن الذين نلعب بالألفاظ ولكن كينونة اللغة هى التى تلعب بنا، لا اليوم فحسب، وإنما دائما ومنذ زمن بعيد"**»[3]. وما يقال عن هيدجر يمكن أن يصدق على البناء الفلسفى لنيتشه الذى استطاع من خلال ولعه باللغة وبأسرارها البلاغية والأسلوبية أن يؤسس لنمط جديد فى التفلسف وهو ما شكل نقطة تحول بالنسبة للفلسفة المعاصرة خاصة تلك التى تحمل توجهات انطولوچية، وقد أوضح نيتشه أن النظام المفاهيمى للخطاب الفلسفى لا يمكن أن ينفصل عن أسسه اللغوية ومن ثم فإن دوفور Dufour محق حينما ينبهنا إلى أنه: « **لا يجب (.) أن نرجع إلى نيتشه الأطروحة**

---

(١) الطاهر وعزيز - المناهج الفلسفية - المركز الثقافى العربى - بيروت - الدار البيضاء - ط١ - سنة ١٩٩٠ - ص٧٢.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) المرجع نفسه - ص ٧٢ - ٧٣.

الرومانسية لفكر مفاهيمى يجتاز الطبيعة فى كليتها، دون أن يمر عبر وساطة اللغة. فهو لم يتوقف عن التأكيد على أن فكرنا المفاهيمى لا يوجد خارج الكلمات :" وسنتوقف عن التفكير إذا رفضنا القيام بذلك تحت ضغط اللغة" وباختصار " إننا نفكر بالكلمات»[1].

إن من أهم الأشياء التى تزود بها اللغة الفيلسوف، كما يوضح ذلك الظاهر وعزيز، هو ما تعج به من مفاهيم متقابلة، تجعله قادرا على تفكيكها إلى ثنائيات فلسفية يتجاوز بواسطتها صعوبات البحث ويغنى بها، من جهة أخرى، منابع فكره، فالفلسفة فى نهاية المطاف لا يمكنها بأى حال من الأحوال أن تستغنى عن الصيغة المعهودة فى التأليف الفلسفى والمتمثلة فى الثنائيات الفلسفية، والتى يطلق عليها بيرلمان، من حيث كونها تعتبر تقابلات "تشكل الخطاب" الفلسفى، اسم الأزواج الفلسفية مثل"المظهر/ الواقع" وهى تنتج من خلال طريقتين « **أ - بتفكيك المفهوم إلى مفهومين ثانويين، فقد يحدث للفيلسوف أن لا يهتدى لحل مشكل بطريقة مرضية، إلا إذا قام بتفكيك أحد المفاهيم المتعارضة، فلم ير كانط مثلا من سبيل للخروج من التناقض بين حتمية العلوم الطبيعية والحرية الأخلاقية، إلا بأن فضل مفهوم الواقع إلى واقع ظاهرى يخضع للحتمية الكلية، والواقع فى ذاته الذى تسوده الحرية. ب- بأخذ مفهومين عاديين لا يعارض الناس بينهم عادة. وإنما يستعملون كل واحد منهما مستقلا عن الآخر، وينهض الخطاب الفلسفى بالجمع بينهما فى صورة تقابل لا معنى له خارج هذا النص، ويكون من العبث البحث عنه فى معجم لا يحتوى على المفاهيم»**[2]. وهنالك من يعتبر من جهة أخرى أن الأزواج تمثل الموضوع الحقيقى الذى يتصدى له كل إبداع فلسفى مهما كان نوعه ويمكن أن نشير فى هذا السياق إلى الأزواج الفلسفية المشهورة التى ميزت التفكير الفلسفى طيلة عصور بأكملها مثل العرض/ الجوهر، النسبى/ المطلق، الذاتى/ الموضوعى. . . إلخ.

---

(١) Eric Dufour : revue - philosophie - op cit - P.57.

(٢) المرجع نفسه - ص٧٤.

واللغة كما يشير أحد الفلاسفة، تشكل فى علاقتها الجدلية والثنائية مع الفكر وجهين متقابلين لعمله واحدة «**فهى وعاء الفكر على حد تعبير هيجل، وهى التى تحول الحالات الشعورية إلى أفكار مجردة، ولا ريب أن المنطق وثيق الصلة باللغة، لذا تصح المقابلة بين علم المنطق، كعلم يعنى بضبط قوانين الفكر، وبين علم النحو الذى يعنى بضبط قواعد اللغة**»(١).

٥ - الفكرة والمفهوم : اتحاد أم تضاد ؟

رغم الفارق اللفظى الواضح فيما يخص العلاقة ما بين المفهوم والفكرة فإنهما يظلان عبارة عن تعبيرين مختلفين لمعنى فلسفى يكاد يكون واحدا، ولكننا نجد فى بعض الاتجاهات الفلسفية تفريقا واضحاً ما بين المفهوم والفكرة بل وحتى تفضيلا لأحدهما على الآخر فبول فولكيى Paul Foulquié يشير فى كتابه "المنطق" إلى أن «**الفكرة والمفهوم هما فى بعض الأحيان مترادفان، ونستطيع القول مثلا "مفهوم العدالة" كما يمكننا أن نقول كذلك "فكرة العدالة" ولكن الترادف يعتبر ضئيل الحدوث، فالفكرة باعتبارها لفظا خاصاً باللغة العامة واللغة الفلسفية كذلك، تشير إلى التفكير الفردى (...) وليس الأمر كذلك بالنسبة للمفهوم الذى يتطلب عمومية وشمولية مطلقة، من جهة أخرى وبخلاف الأفكار، المفاهيم تعتبر مشتركة ما بين جميع الذين يعرفون معانى الكلمات التى يعبرون عنها**»(٢). وحده كانط استطاع أن ينتشل الفلسفة الكلاسيكية من ما كان يشوبها من غموض والتباس، بتقديمه لتمييز أقل ما يقال عنه أنه هام ودقيق لمجموعة من الألفاظ : كالحدس، والمفهوم، والفكرة ، والمبادئ، حيث نجده يقول فى كتابه نقد العقل الخالص «**إن اللفظ العام هو لفظ التمثل عموماً (...) ويمثل التمثل المرفوق بوعى (...) أحد أنواعه ويمثل الإدراك العائد إلى الذات وحدها، كتغيير لحالتها، يمثل إحساساً (...)، ويمثل الإدراك الموضوعى علما (...)، وهو إما حدس**

---

(١) الدكتور مهدى فضل الله - مدخل إلى علم المنطق (المنطق التقليدى) - دار الطليعة - بيروت - الطبعة الرابعة - أكتوبر ١٩٩٠ - ص٤٥.

(٢) Paul Foulquié : Logique nouvelle édition revue et corrigée leséditions de l'école Paris. 1957. P.17.

وإما مفهوم(...) ويرتبط الحدس مباشرة بالموضوع، وهو فردى أما المفهوم فهو يرتبط بالموضوع ارتباطاً غير مباشر عن طريق علامة يمكن أن تكون مشتركة بين كثير من الأشياء ويمكن أن يكون المفهوم تجريبياً أو خالصاً، ويسمى المفهوم الخالص، من حيث هو نابع من الذهن وحده (لا من صورة حاصلة للإحساس) معنى notion. ويمثل المفهوم النابع من المعانى والذى يتجاوز حدود التجربة، فكرة أو مفهوماً عقلياً»[1].

إن المفهوم بالنسبة لكانط هو بمثابة الصورة الفكرية التى يقوم من خلالها وبواسطتها الذهن بتنظيمات تخص تجليات الحس، ويسميها كانط أحياناً بالمقولة، وتمتلك القدرة على الربط ما بين مختلف الاحساسات. وخلاصة العلاقة ما بين الفكرة والمفهوم عند كانط تتمثل فى أن الفكرة هى فى نهاية الأمر نوع من المفاهيم.

وعلى العموم فإننا نعتقد أن العلاقة ما بين المفهوم والفكرة كانت وما تزال علاقة اتحاد وترادف أو فى أسوأ الأحوال علاقة تجاور، ولم تكن أبداً علاقة تضاد كما تذهب إلى ذلك بعض الأبحاث.

إن حصول الإنسان على المعارف والأفكار وبنائه للصروحات والمنظومات الفكرية والعلمية يبقى رهناً لمدى أصالة المفاهيم المنتجة ولمدى قدرتها على الغوص فى أعماق الإشكاليات دون أن تغرق صاحبها أو تؤدى به إلى التيه والظلال، فأبسط عمليات الذهن البشرى لا يمكن أن تتم بدون ضوابط وعلامات، لا يمكنها أن تكون من الناحية النظرية إلا عبارة عن مفاهيم «**فالإدراك يقتضى وجود مفاهيم أو معانى عامة، وبدون مفاهيم تكون المعرفة مستحيلة، فنحن كما يقول آلان Alain، "نسير نحو الأشياء مسلحين بعلامات"، وإن كل نتاجات الثقافة، من لغة وأسطورة وفلسفة ومعرفة علمية، تندرج على اختلافاتها فى إشكالية عامة واحدة، وتبدو كمجموعة من المحاولات من أجل تحويل العالم السلبى، عالم الانطباع المجرد الذى يبدو لأول وهلة أن الفكر منحبس فيه إلى عالم يعبر عنه الفكر**»[2]. كما أن للمفاهيم فى المجال الفلسفى مرتبة أساسية لا تقدر بثمن، حتى أنه قيل عن الفلسفة «**أنها لا تخرج عن تحديد مجموعة من**

---

(١) عمر الشارنى - مرجع سابق - ص ٥٨.

(٢) الطاهر وعزيز - مجلة المناظرة - مرجع سابق - ص١١

المفاهيم، وأن أول تمثل لفكر أحد الفلاسفة هو أن نفهم ألفاظه، أى هاته اللغة التقنية..»[1].

إن المفاهيم مثلها مثل الكائنات الحية، تحمل عمراً معرفياً وحياة فكرية تظهر وتبرز خلال فترة معرفية معينة ثم تختفى أو يتم تجاوزها لأن كل مفهوم حقيقى يعتبر تجديداً فى سياق ما هو منجز وقديم «**يحاوره ويحوره بقدر ما يستقل عنه وينفصل. فكل مفهوم حقيقى هو "قطيعة" مع الماضى، ولكنه لا يمكن أن يكون قطيعة تامة ومطلقة**»[2]. والمفاهيم تتخذ أيضاً شكل النظام أو المجال المعرفى الذى تنتج فيه وتتلون به، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى فقرة سابقة، وتعيش بداخله حياة منسجمة ومتماسكة قد لا تتوفر لها فى حيز ابسيتمولوجى مغاير، وهكذا فعملية «**إنتاج المفهوم تبقى هى أيضاً مرتبطة بجملة العمليات الفنية الضرورية لإبرازه، أى فى نهاية الأمر للتدليل عليه، إلا أن هذه العمليات تتسم وتتلون بلون الميدان المعرفى الذى يوجد فيه المفهوم. فهى فى ميدان الفيزياء (...)، عمليات قيس وبناء، أما فى علم الحياة، فلا يمكن أن تكون قيسا وبناء بل لا يمكن أن تكون إلا ملاحظة وجمعا وترتيبا لمجموعة الظواهر الدالة على المفهوم، أى بعبارة لامارك، مجموعة "العلاقات" الدالة على المفهوم**»[3].

جانب آخر من تكوين المفاهيم يتطرق إلى ألتوسير Althusser بتأكيده فى كتابه قراءة رأس المال (الجزء الأول) على أن «**المفاهيم النظرية الضرورية لا تنبنى سحرياً وبشكل ذاتى تحت الطلب، عندما نكون فى حاجة إليها، فكل تاريخ بدايات العلوم أو الفلسفات الكبرى، يبين أن المجموع الدقيق للمفاهيم الجديدة لا تتابع فى استعراض، على صف واحد، ولكن على العكس من ذلك بعضها يفضل الانتظار طويلا**»[4].

---

(١) الطاهر وعزيز - تاريخ الفلسفة - مناهجه وقضاياه - شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع - الرباط - مارس١٩٩١ - ص٨٩.

(٢) عمر الشارنى - مرجع سابق - ص ٥٨.

(٣) المرجع نفسه - ص٧٦.

(٤) Louis Althusser Etienne Balibar lire le capital I F M / Petite collection maspero Paris. 1980. P. 60.

إننا كما يرى إدغار موران E. Morin خدام الأفكار التى تخدمنا حتى أننا نستطيع أن نعيش ونموت من أجل فكرة، وهنا يبرز الطابع الخطر للمفهوم، فتكوين المفاهيم والمعانى المجردة يخضع إلى مجموعة من المعطيات الذاتية والموضوعية، كما أن عملية التكوين والتشكل متضمنة داخل نسيج قدرة الإنسان على إدراك وتمثل الأشياء والمعانى **« فعملية إدراك المعانى المجردة أو تكوينها تحول المعروف إلى محمول أى إلى فكرة. ونستطيع أن نجد فى فكرة "المعانى المجردة" - فكرة الإنجاب أو الولادة - فكرة تكوين المفهوم - والفكرة الحديثة، ولكن الملائمة "الدازاين"، تلك التى لها مظهر أصيل وتمثل نموذجاً لمجموعات، وتجميعاً لمواضيع جديدة. ونستطيع من خلال ربطنا للمعانى الثلاث، تحديد عملية إدراك "المعانى المجردة" باعتبارها عملية توليد من طرف فكر بشرى، لشكل خارجى أصيل يكون وحدة منظمة»**(١).

والمفهوم مثلما يمكنه أن يتحول أو يصاغ فى إطار قانون ما، فإنه قادر على أن يتحول إلى نظرية كما هو الحال بالنسبة لمفهوم الانتقاء الطبيعى عند داروين، لكن لايعنى أن كل المفاهيم قادرة على أن تتحول إلى نظريات، فالمفاهيم فى واقع الأمر تختلف من حيث أهميتها وإجرائيتها وقدرتها على توليد أفكار جديدة، وذلك راجع إلى كونها غير متساوية فى الدرجة والأهمية وتتفاضل بالنظر إلى درجة كبر واتساع "الحقل المعرفى" الذى تشمله، كما يوضح ذلك "عمر الشارنى".

كما أن ثراء المفاهيم فى مجال معرفى معين وندرتها أو شحتها فى مجال آخر، يؤدى فى الغالب إلى استخدام الكثيرين لما يسمى بتقنية استعارة المفاهيم من ميدان معين إلى ميدان آخر قد يكون مختلفا عن الأول اختلافاً جذرياً من حيث الطبيعة والأصل المعرفى، ومثل ذلك الإجراء وإن كان له ما يبرره من الناحية التطبيقية والعملية فى كثير من الأحيان خاصة فيما يتعلق بالدراسات الخاصة بالفلسفة والعلوم الإنسانية، فإنه يحمل من ناحية أخرى مخاطر ومزالق قد تؤدى إلى نسف العمل الإبداعى المنجز برمته وتعيد الباحث إلى نقطة البداية الأولى، فهناك خصوصية واضحة بل وأكيدة للمفاهيم المرتبطة بكل حقل معرفى معين، وهكذا فإننا نرى على سبيل المثال: **«ان استعمال**

---

(١) Edgard Morin : la méthode 3 la connaissance de la connaissance anthropologie de la connaissance Editions du Seuil Paris 1986. P. 185.

المفاهيم العلمية خارج أطرها النظرية والتجريبية لبناء نظرية فلسفية عامة للكون والحياة والتاريخ والمجتمع .. لا يتم ولا يمكن أن يتم إلا على أساس تأويل هذه المفاهيم وتحويرها وتشويهها»[1].

إن المفهوم كما يضيف عمر الشارنى: « **يرتبط ارتباطا متيناً بأرضه وموضعه الذى نشأ فيه، لا يغادره إلا وتعرض حتماً للتشويه، وعلينا أن نعلم أن المفاهيم العلمية ضاربة فى الخصوصية، غير قابلة لأن يتحول بعضها إلى بعض. فالمفهوم طائر أليف، لا يغادر أيكه إلا وترك فيه هويته، فليس على الفيلسوف أن يتحول إلى قارع للطبول، مهجر للمفاهيم، بل لقد نشأت الفلسفة منذ ولادتها على احترام المفاهيم ورعايتها حيثما وجدت، ولقد كانت الفلسفة دوماً عملاً دؤوباً، ينساب فى هدوء وسكينة، فينفذ إلى الأعماق، أعماق المفاهيم، فيختبر مدى متانتها وصلابتها، وتلاؤمها مع أرضها، ومن هناك يعزز تأصل ما كان منهما متأصلا، ويجتث عروق ما لم يكن سوى طفيليا»**[2].

إن المفهوم وإن كان يحيل إلى أفق نظرى مجرد فى سياق التنظير داخل الفلسفة والعلم، فإنه كثيراً ما تعطى له معانى متعارضة، تولد الانطباع بأن الحديث يدور حول مواضيع لا يوجد أى مشترك يجمع بينها. فالتنظيرات التى يقدمها الفلاسفة للمفهوم قد يختلف البعض منها بشكل جذرى عن إسهامات العلماء فى نفس المجال. بل أن جيل دولوز وغتارى يذهبان إلى اعتبار أن الممارسة "المفهومية" هى ممارسة فلسفية بالدرجة الأولى، فإما «**أن الفلسفة تجهل كل شىء عن المفهومة [=المفهوم] وإما أنها تعرفه تمام المعرفة وقبل أى كان، إلى درجة أنها لا تترك شيئاً للعلم، الذى ليس بحاجة لذلك فى أى حال من الأحوال والذى لا يهتم إلا بحالات الأشياء** (états de choses) **وشروطها. إن القضايا والوظائف تكفى للعلم، فيما الفلسفة ليست بحاجة إلى ذكر معاش (...)، فالمفهومة الفلسفية لا ترجع إلى المعاش، للتعويض، بل بخلقها الخاص تبنى حدثا يتحلق فوق كل معاش (...). كل مفهومة تنحت الحدث وتنحته من جديد كما تريد (...). تنتمى الفلسفة إلى المفهومة إلى الفلسفة ولا تنتمى إلا إليها»**[3]. وهذه النظرة

---

(١) عمر الشارنى - مرجع سابق - ص ١٢٠.

(٢) المرجع نفسه - ص١٢١.

(٣) جيل دولوز / فيليكس غتارى: ما هى الفلسفة ؟ - تعريب د. جورج سعد - دار عويدات الدولية - بيروت - باريس - ط١ - ١٩٩٣ - ص٤٢.

التى يدافع عنها دولوز وغتارى تختلف إلى حد بعيد عن ما هو دارج لدى الابستيمولوچيين فيما يخص التنظير للمفهوم، يقول جورج كونغليهم Canguilhem «...، **أن تحدد معرفة الحياة من منطلق معايشة مفهوم ما هو حى le vivant، هو بكل تأكيد ضمان بأن الحياة ستكون فعلا المحتوى الخاص [بفعل] المعرفة، لكن ذلك هو تنازل عن مفهوم [فعل] المعرفة بما هو مفهوم المفهوم. إن علم الحياة يعثر مرة أخرى على الطبيعة، لكنه يهيم بوصفه كذلك معرفة مالكة لمفهومها الخاص**»(١). فهذا الموقف الذى ينطلق من ابستيمولوجيا علم الأحياء يعطى للمفهوم دوراً إجرائياً مهماً فى سيرورة العمل العلمى.

وهذا الاختلاف بين وجهتى النظر العلمية والفلسفية يُصبح أحياناً اختلافاً ما بين البعدين الفلسفى والمنطقى، حيث «**المفهوم [=التصور] بالمعنى المنطقى ليس شيئاً آخر غير الخاصية، خاصية كيان ما** entité»(٢). وهذا البعد المنطقى للمفهوم الذى يتحدث عنه رموز الفلسفة الوضعية و "اللغوية"، وهو ما يجعل دولوز وغتارى يقولان: «**إنه الخلط بين المفهومة والقضية الذى يجعلنا نعتقد بوجود مفهومات علمية، والذى يعتبر القضية كتوتر داخلى حقيقى (ما تعبر عنه الجملة) : هكذا فإن المفهومة الفلسفية لا تبدو غالباً إلا كقضية فلسفية فارغة من المعنى. يسود هذا الخلط فى المنطق ويفسر الفكرة الطفولية التى كونها المنطق عن الفلسفة. تقاس المفهومات حسب علم قواعد "فلسفى" يضع مكانها قضايا مستخرجة من الجمل التى تظهر فيها: يتم هكذا حبسنا، باستمرار فى بدائل بين قضايا، (...)**»(٣).

لذلك فإن الباحث ماريو بونج Mario Bunge يساعدنا كثيرا على توضيح جزء من الالتباس الذى يحدث أحياناً بين المفهوم والقضية «**فمن خلال [تعبير] "بناء" أو**

---

(١) Georges Canguilhem : Etude d'histoire et de philosophie des sciences .. - Ed. J. Vrin 7éme édition - mai 1994. P.347.

(٢) Georges Kalinouski : Sémiotique et philosophie - Ed. Hadès - Benjamin - Paris 1985. P.102.

(٣) جيل دولوز - فيليكس غتارى - مرجع سبق ذكره - ص٣١.

"موضوع مفاهيمي" نشير إلى إبداع ذهني (دماغي)، ومع ذلك فنحن لا نعني موضوعا ذهنياً أو نفسياً كإدراك، أو ذكرى أو ابتكار. إننا نميز بين أربع أقسام أساسية من البناءات: المفاهيم، القضايا، السياقات، والنظريات»(١).

إن الكثير من الاختلافات التى نجدها قائمة بين المنظرين حول المفهوم، يمكن إرجاعها فى الأساس إلى مرتبته العالية فى التجريد، فنحن فى خدمة عملية تأسيسه التجريدى. وهو قد لا يعنى لدى الكثير منا أكثر من كونه جزءاً لا يتجزأ من النسق اللغوى «**فمفاهيمنا هى إذن أنساق للمعرفة يجدها فكرنا فى خدمته دائماً.**

والمفهوم، ليس فقط معرفة موحدة ولكنه يجعل كذلك من الممكن، وباستمرار، استحضار كل معرفتنا»(٢). لأن معرفة هى شكل من أشكال معرفة من خلال المفاهيم، فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتواصل مع غيره بدون وجود شفرة لسانية، فإنه لن يكون بإمكانه ممارسة الفعل التنظيرى بدون مساعدة المفهوم«**إن المجال الذى يدخله الفيلسوف الشاب ليس أرضاً مجهولة بالنسبة للناس الآخرين (...) : فهناك تقسيمات أنجزت قبله، وتعارضات بين المفاهيم أصبحت كلاسيكية. ويجب عليه أن يغرق حدوسه فى طاحونة مفاهيمية مشكلة من قبل توفر له فى نفس الوقت إمكانيات وجينات** Gênes **إجرائية، وبهذا يمكن أن نتحدث عن "علم- محرك"** dynamologie **إجرائى خاص بالبنيات المفاهيمية الفلسفية (...)، وفى الواقع ومن خلال استعمال هذه الأخيرة [أى البنيات المفاهيمية...]، يتوصل المجدد فى الفلسفة إلى تكسير رتابة التعبيرات التى تعيقه أو التى تبدو له مفتعلة...»**(٣).

لا شك بأنه من الضرورى أن تكون للفيلسوف أو العالم معرفة واضحة بالمفاهيم وبطبيعة أسسها النظرية حتى يتمكن من بلورة برامجه البحثية وأدواته الإجرائية فى ظروف فكرية ملائمة، وإذا كان يحدث أحيانا للعلماء أن يغفلوا التساؤل عن طبيعة

---

(١) Mario Bunge: épistémologie - traduction de Hélène denadien. - Maloien S. A Editeur - Paris - 1983 - P.53.

(٢) Gaston Viaud : I'intelligence: son évolution et ses formes. Ed: PUF - coll "Oue suis je" 9ème édition - édition Paris. 1961. P.72.

(٣) René Boirel : théorie générale de I'invention: op, cit. p. 190.

مفاهيمهم دون أن يؤثر ذلك بالضرورة على إبداعيتهم. فإنه لا يمكن أن نتصور حدوث ذلك بالنسبة للفيلسوف الذى يصعب عليه أن يشيد صرحه الفلسفى دون معرفة مسبقة بطبيعة المفاهيم كأسس نظرية، وكذا بطبيعة مفهوم المفهوم.

إن كلمات لغة ما مثلما يشير إلى ذلك كلو جيرمان Claude Germain فى كتابه: "علم الدلالة الوظيفى"، تأخذ أسلوب الترييب الذى تقتضيه مهام المفاهيم ووظيفتها، فالفكرة «**التى بمقتضاها يمكن لكلمات لغة أن تنتظم بحسب وظيفة المفاهيم التى تشير إليها ليست إذن جديدة.. فهى فى الفلسفة تعود على الأقل إلى ليبنتز G W Leibniz وأبجديته [حول] الأفكار الإنسانية، مرورا بظاهرية هوسيرل E Hurssel، وتعليم كاسيرر، وبشكل خاص نظرات فون هومبولدت W. Von Humboldt حول التكيف المتبادل للغة والفكرة**»[1].

فالمفاهيم إذن هى التى تؤدى دور منظومة الإنسان الرئيسية والمحرك المحورى فى كل عملية إنتاج للمعارف عبر نظام اللغة، فثقافة الإنسان وركام معارفه المختلفة وطبيعة رؤيته للواقع هى التى تحدد معنى المفاهيم أثناء استعمالها، فمهما يكن من أمر، يضيف كلود جيرمان Germain، فإنه «**إذا كانت الحدود الفاصلة ما بين المفاهيم مختلفة خلال مائة سنة من الفارق، فالمسألة لا يمكن أن تكون [متعلقة] بإلصاق هذه النظرة الجديدة للعالم بمعجم الألفاظ lexique ذاته، فهذا الأخير لكونه بقى جزئياً دون تبدل inchangé [فإن] تغيرات العلاقات الحميمة ما بين المفاهيم، داخل حقل مفاهيمى، لايبدو أنها تفسّر إلا من خلال تغير فى موقف الإنسان اتجاه الواقع، أى فى النهاية انطلاقا من ثقافة الإنسان**»[2].

ومن خلال تحليله لمفهوم "روحانى" فى اللغة الإيطالية المستعمل من طرف ليونارد دافنتشى Léonard de Vinci من أجل تحديد المعنى المجرد الخاص "بالقوة"، يصل جيرمان Germain إلى ملاحظة أن استعمال المفهوم ذاته بمعناه الحالى يمكن أن يحيل إلى معنى روحانى وحيوى فيما يخص القوة عند "دافنتشى"، وهو ما لا يعكس الواقع

---

(١) Claude Germain : la sémantique fonctionnelle (le linguiste) Ed. P.U.F. Paris. 1981. P.40- 41.

(٢) Ibid. P. 69.

اللغوى والثقافى لعصره، لذلك لا يمكن فهم المعنى الحقيقى لكلمة "روحانى" إلا من خلال الرجوع إلى الحياة الثقافية والفكرية فى عهد صاحب أشهر اللوحات الفنية. لأن القيم اللفظية فى نظر "كلود جيرمان" يجب أن تحدد انطلاقا من تعارضها الداخلى، وليس انطلاقا من التوضيحات والالتباسات المرتبطة بالواقع، فغياب التحديد المنضبط لا يؤدى بالضرورة إلى الغموض والالتباس على مستوى المفاهيم ومعجم الألفاظ المقابل[1].

والفلسفة فى نظر "جيل دولوز" Gilles Deleuz تجلب مفاهيم جديدة، وتقوم بعرضها ولكنها لا تعرض بشكل كلى المشاكل التى تجيب عنها تلك المفاهيم، فالفلسفة فى نظره، ترتكز دائماً على ابتكار المفاهيم، ذلك أن لها وظيفة تبقى متزامنة بشكل جيد، وهى خلق المفاهيم الأمر الذى لايمكن لأى أحد آخر أن يقوم به، إنها أى الفلسفة ليست ذات صبغة اتصالية communicative ولا هى ذات صفة تأملية أو استبطانية تفكيرية، إنها خالقة بل وثورية بطبيعتها، من حيث كونها لا تتوقف عن خلق مفاهيم جديدة.

إن المفهوم بالنسبة "لدولوز" Deleuze هو الذى يمنع الفكر من أن يتحول إلى مجرد رأى بسيط، أو وجهة نظر أو محادثة أو حتى دردشة، فكل مفهوم هو مفارقة بالقوّة، وهو يشتمل على بعدين إضافيين هو الإدراك والمؤثر وذلك بالذات ما يهمه وليس الصور. فالمدركات ليست اختزالاً لفعل الإدراك إنها علب أو مجموعة من الإحساسات والعلاقات التى تحافظ على وجودها عند من يشعر بها، والمؤثرات ليست عواطف أو ميول، إنها صيرورات des devenirs تلتف وتتجاوز من يمر بها ويصبح مختلفاً، إن المدرك والمؤثر والمفهوم يمثلون ثلاث قوى لا تتفرق، ينطلقون من الفن إلى الفلسفة ويقومون بالعكس.

والأسلوب أو النمط فى الفلسفة هو بمثابة حركة المفهوم وهو لا يوجد بالتأكيد خارج الجمل، على أن الجمل ليس لها موضوع آخر غير إعطائه الحياة، حياة مستقلة، وفى الفلسفة كما يحدث فى رواية، يرى "دولوز" بأنه يجب أن نتساءل عما سيحدث؟ وعما حدث؟ لأنه فقط الأشخاص الذين لهم حق تمثيل المفاهيم أما الأوساط والمناظر فهى فضاءات خاصة بالوقت والزمن.

---

(١) Ibid. P. 108- 109.

ويؤكد الفيلسوف من ناحية أخرى على أننا نكتب دائماً لنقدم الحياة، ولنحررها هناك حيث هى مسجونة، ولكى نرسم خطوطاً للهروب، لذلك يجب، أن لا تكون اللغة نظاما منسجماً، ولكن عبارة عن لا توازن بل ودائماً غير منسجمة ومتنافرة، كما أن الأسلوب عند "دولوز" يحفر فروقاً كامنة أو موجودة بالقوة والتى من خلالها يمكن لشيء ما أن يمر.

ويشير "دولوز" إلى أن فى فعل الكتابة هناك محاولة تهدف إلى جعل الحياة شيئاً أكثر من شخصى، بغية تحريرها مما يسجنها، فعملية الخلق لا تعنى التواصل، ولكن تعنى المقاومة، والمجرد لا يشرح شيئاً بل يحتاج هو ذاته إلى شرح، كما أن المفهوم ليس عاماً أو شاملاً بل هو مجموعة من التفردات والخصوصيات حيث تغوص كل واحدة منهما لتتجاوز الأخرى.

إن جيل دولوز G. Deleuze يتصور الفلسفة كمنطق للتعدد وهو بذلك يشعر بنفسه قريبا من "ميشال سير" Michel Serres **«فإبداع المفاهيم، [يعنى] بناء منطقة لمخطط، وإضافة منطقة للمجموعة السابقة، واستكشاف منطقة جديدة. وسد النقص. فالمفهوم هو [شيء] مركب وخطوط موطدة، ومنحنيات، وإذا كان من اللازم تحديد المفاهيم باستمرار، فذلك فى الحقيقة لأن مخطط الملازمة والمثولية ينبنى حسب المنطقة، وله بناء محلى من القريب إلى القريب»**(١).

ولعل الطابع المتعدد للمفاهيم وبروزها فى أشكال قد تكون متضاربة هو الذى جعل "جيل دولوز" يصل إلى القول بأن **«صورة الفكر هى التى توجه إبداع المفاهيم، إنها مثل صرخة، بينما المفاهيم هى أغانى»**(٢). لأن المفاهيم تنعكس فى مرآة الفكر مثل الصورة المجسدة، والألفاظ والتى لا تستوفى شروط الانعكاس المرجوة لا ترقى أبداً إلى مرتبة المفاهيم، ولا يمكن أن تنجز نفس الوظيفة المنوطة بها فى مجال توجيه عملية بناء الأفكار الفلسفية من خلال جهاز المفاهيم.

---

(١) Gills Deleuze : magazine Iittéraire (revue) dossier : Gilles Deleuze: une Philosophie nomade N: 257 Paris septembre 1988. P.22.

(٢) Ibid. P.23.

إن الفلسفة كما يوضح ذلك دولوز Deleuze تجند فى إبداعها للمفاهيم، ارتباطات جديدة وانفعالات عصبية جديدة وكذا اقترانا جديدا "للكروموسومات" أو لنقاط الاشتباك العصبى، وتجند أيضاً صورة كاملة تكشفها لنا بيولوچيا الدماغ بوسائلها الخاصة»(١).

لذلك فإن المفاهيم ليست بالمسألة الهينة التى تعرض نفسها كتقنية آلية أمام الفيلسوف الذى يستعملها متى شاء وفى أى وقت أراد، إن المفاهيم تخرج من جوف الكتابة الفلسفية كما يخرج الرضيع من بطن أمه عبر سلسلة من الآلام والمعاناة، تفضى بعد مدة معينة إلى بروز المفهوم كاملاً ومكتملاً بعد أن يكون قد نضج وترعرع فى رحم نظام الأفكار الذى يؤسسه الفيلسوف، لذلك فإنه من الخطأ أن يتصور البعض أنه يمكن الحصول على مفهوم جديد كما نحصل على مفردات اللغة أثناء عملية الصياغة أو التأليف الروتينى الذى اكتفى بترديد الصيغ المفاهيمية الجاهزة، دون أن تتوفر أدنى شروط الإبداع المفاهيمى.

وإذا كان "جيل دولوز" يعتبر أن عملية إنتاج المفاهيم ترتبط بشكل أساسى بالحقل الفلسفى فإن "لوك فيرى" Luc Ferry، يذهب إلى التأكيد على ما هو مخالف لذلك فى مقالته التى تحمل عنوان "الفترات الثلاث للفلسفة المعاصرة" حيث يقول **«...النشاط الفلسفى ليس له اليوم كما البارحة أية صلة بذلك الإدعاء بإبداع المفاهيم التى يتحدث عنها دولوز Deleuze فى - كتابه الأخير - وكأن العلوم تتقلص إلى مجرد تقنيات خالصة وظيفية، ولا تخلق هى الأخرى مفاهيم بل ويعد أهم بكثير مما لم تحققه الفلسفة أبداً»**(٢).

ودون أن نضطر إلى أخذ قرار من موقف الكاتبين فإنه يمكننا أن نقول أنه قد أصبح من المعروف الآن فى مجال الفيزياء مثلا أن المفاهيم كثيراً ما تتحول فى بعض الفروع التطبيقية إلى جملة من المعادلات الحسابية الدقيقة القابلة للاستثمار فى المجالات التقنية،

---

(١) Ibid. de P. 16 à P.25

(٢) Luc Ferry : le débat (revue) - dossier : la philosophie qui vient parcours : bilans projets - No : 72 Gallimard - Paris novembre - décembre. 1992. P.119.

ومن ثم فإن إبداع المفاهيم فى علم مثل الفيزياء لا يشكل فى واقع الأمر سوى بداية نظرية أولى من أجل تحويلها إلى معادلات وصيغ حسابية أو إلى قوانين سواء كانت بسيطة أو معقدة، لتنتهى إلى الارتباط بمجال التطبيق التقنى فى أغلب الحالات، بينما يظل المفهوم فى الفلسفة هو العمود الفقرى فى كل بناء تنظيرى وغياب المفهوم أو تحوله إلى شىء آخر يؤدى إلى نسف البناء من أساسه، فإذا كان علم مثل الفيزياء يبتدأ من المفهوم ليصل إلى تركيب جديد مغاير أكثر دقة فإن الفلسفة تبتدئ من المفهوم لتصل إليه.

والمفاهيم رغم أنها تتوفر على هامش من الاستقلالية وحرية المبادرة فى حركتها داخل المجال النظرى فإنها تخضع لجملة من التحديدات التى تصنعها الخطابات، خاصة من خلال علاقة اللغة بالفكر وذلك ما يؤدى بنا إلى القول مع "جاك فرنسيس" Jacques Francis فى كتابه "فضاء منطق المخاطبة" أنه «**يجب أن نعترف بأن نمط تمفصل مفاهيمنا لا يسمح بالقراءة الجيدة إلا داخل الخطاب ، والارتباط ما بين اللغة والفكر هو تحول إلى الضرورى. وبدل أن نأخذ الأولى كأداة للثانى، جعلنا منها شرطاً لتشكل [المفهوم] فى حد ذاته**»(١).

إن الفلسفة تمثل المجال الأكثر قابلية للإبداع باعتبارها تقرأ الواقع وتحلله وتجرده وتنسج الأفق النظرى الذى يقدم الأفكار فى شكل صياغات جديدة لذلك فإننا سنكون مخطئين، كما يرى ذلك اتيان سوريو Etuenne Souriau فى كتابه "التأسيس الفلسفى" ، «**إذا اعتبرنا الفلسفة كأنها فى تعارض مع الحاجة إلى الإبداع! كما نكون مخطئين الظن (...) أنه يمكن الاستغناء عنها من أجل الإبداع الحقيقى، ذلك أنها هى الوحيدة التى تعفى من الواقع المطلق**»(٢).

ومن باب التوضيح تجدر الإشارة إلى أن إشكالية الإبداع الفلسفى والمفهوم، سبق وأن طرحت بصيغ مغايرة عبر تاريخ الفلسفة فى إطار مذاهب واتجاهات فلسفية لم تكن فى أغلب الأحيان تحفل سوى بالنظام الخارجى للتفكير الفلسفى، ويشير "روجى

---

(١) Francis Jacques : l'espace logique de l'interlocution (dialogique II collection: philosophie d'aujourd'hui) PUF Paris I^{ère} édition - Mars 1985 P. 61.

(٢) Etienne Souriau : l'instauration philosophique Iibrairie Félix Alcann - Paris 1939 P.409.

فيرنو" Roger Vernaux فى هذا الصدد إلى أن الفيلسوف المعاصر سيلحقه العار إذا أعاد فتح الجدال القديم الخاص "بالكليات" les universaux ومع ذلك فمثل هذا الإشكال يعتبر أبدياً، لكونه يعتبر واحدا من المشاكل التى يلقاها فى طريقه كل جيل من الفلاسفة، والتى يجب عليه سواء برضاه أو بغير رضاه أن يحلها لحسابه، فالمفكرون فى العصور الوسطى وضعوا مشكل الكليات قيد الدراسة المستفيضة، وكان لديهم شعور أكيد بأنه يمثل "القبة" بالنسبة لكل ابستيمولوچيا، وإذا كان المفكرون يقطعون المسألة فلأنه لا أحد يمكن أن يفعل غير ذلك وهو ما يعرضهم إلى كل أنواع الخطأ والالتباس، **« ومع ذلك [يضيف فيرنو Veranaux] فالمشكل من السهل جداً طرحه: ما هى قيمة أو موضوعية المفهوم، وما الذى يناظر فى الواقع الماهيات المجردة والكلية التى نفكر فيها؟ وإذا كان يسمى عادة مشكل الكليات، بدل مشكل التجريد، فذلك لأن الصعوبة الرئيسية تأتى من الطابع الكلى للماهيات الذى ينبع من حالة التجريد(...)»**[1].

والمفهوم كما يرى الكاتب هو فى نهاية الأمر بمثابة الفعل الأول للذكاء، وله كموضوع الماهيات المجردة.

وحتى لا نسجن أنفسنا فى ذلك الجدال التقليدى الخاص بالكليات كما وضعها أرسطو، وكما تبلورت فى إطار الفلسفة الوسيطية، فإننا نفضل العودة إلى المفهوم بمعناه التقنى والمعاصر، والذى يعتبر أساس التفكير الفلسفى بل أن الفلسفة تعتمد فى إبداعها على تكوينه وتشكيله وإعادة تنظيم وضبط معانيه.

ويسعى دولوز Deleuze مرة أخرى، فى سياق حديثه عن فلسفة نيتشه ضمن كتابه الذى يحمل عنوان «نيتشه والفلسفة» إلى إثبات أن: **«.. الفلسفة تكوّن مفاهيم ليست أبدية وليست تاريخية، ولكن فى غير زمنها وفى غير حاضرها، فالمقابلة التى تتحقق من خلالها الفلسفة هى تلك [المرتبطة] باللاحاضر مع الحاضر، وبما ليس فى زمنه مع وقتنا الراهن، وفى [إطار] ما ليس فى زمنه** l'intempestif **، هناك حقائق أكثر ديمومة، من الحقائق التاريخية والأبدية مجتمعتين»**[2].

---

(١) Roger Verneaux : épisrémologie générale ou critique de la connaissance édition beau chense Prris - octobre. 1987. P.144-145.

(٢) Gilles Deleuze : Nietzsche et la philosophie édition P. U.F Paris. 1973. P.122.

وقد أشار "كانط" Kant قبل "دولوز" إلى أن «.. **التفكير هو المعرفة بأفاهيم**(*) [=مفاهيم]، **وأن الأفاهيم هى بوصفها محمولات لأحكام ممكنة على صلة بتصور لموضوع لم يزل غير متعين، فالأفهوم "جسم" يعيّن شيئاً، ومعدنا على سبيل المثال، يمكن أن يعرف بذلك الأفهوم، فهو ليس إذن أفهوما إلا بشرط أن يتضمن تصورات أخرى يمكنه بها أن يكون على صلة بموضوعات، وهو إذن محمول لكم ممكن**(...)»[1]. ويرى كانط كذلك أن المفاهيم قد ترمز إلى المقولات كما هو الشأن عند أرسطو، وهى تمثل لائحة كل مفاهيم التأليف المجردة فى الأصل والمتضمنة كذلك فى الفاهمة من ناحية قبلية، وكاستنتاج لكل ذلك، يشير كانط إلى أن «**كل معرفة عقلية هى إما معرفة بأفاهيم أو ببناء الأفاهيم، والأولى تسمى فلسفية والثانية رياضية**»[2].

(*) يفضل موسى وهبه ترجمة مصطلح (Begriff) الألمانى بأفهوم جمع أفاهيم بدل مفهوم جمع مفاهيم.

(١) إمانوئيل كانط - نقد العقل المحض - ترجمة : موسى وهبة - مركز الإنماء القومى - بيروت - باريس - بدون تاريخ - ص٨٤.

(٢) المرجع نفسه - ص ٣٩٩.